بلاغة الكلمة

في التعبير القرآني

تأليف

الدكتور فاضل صالح السامرائي

دار ابن كثير

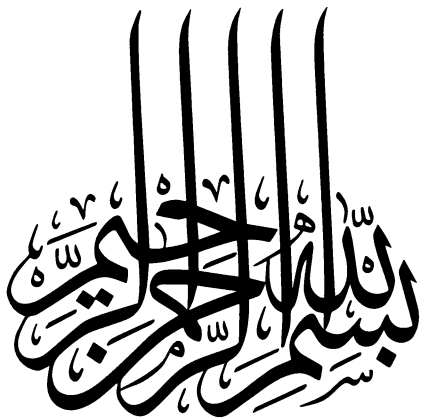

بلاغة الكلمة

في التعبير القرآني

© حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف.

- الموضوع: لغة عربية
- العنوان: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني
- تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

الطبعة الثانية

1437 هـ - 2016 م

ISBN 978-614-415-138-9

ISBN 978-614-415-138-9

9 786144 151389

- الطباعة : مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
- الورق: أبيض / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه
- القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 150 / الوزن: 425 غ

دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

/daribnkatheer @daribnkatheer daribnkatheer daribnkatheer

المقدّمة

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاةُ والسلام على رسوله الأمين ، إمام الهدى محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

هذا كتابٌ يبحثُ في المُفْرَدة في القرآن الكريم. والمقصود بـ (المفردة) هو الكلمة الواحدة ـ كما هو معلوم ـ.

إنَّ موضوعَ المفرَدَةِ في القرآن موضوعٌ واسعٌ متشعِّبُ الأطراف مُتعدِّدُ المناحي ، غيرَ أني آثرتُ أن أبحثَ باختصار أموراً أراها ذاتَ أهميةٍ خاصَّةٍ فيما أحسبُ ، وإنْ كان التعبيرُ القرآنيُّ كلُّه مُهِمّاً .

وهذه الأهمية تعودُ إلى أكثرَ من سبب :

منها : أن قِسماً مما بحثتُه في هذا الكتاب لم أجدْ المَعْنِيِّينَ بدراسةِ بلاغةِ القرآن والمعنيين بدراسة المُتشابه قد أشاروا إليه فيما وقع بين يديَّ من المصادر ، وإنْ كان لا يبعدُ أنْ يكونَ مطروقاً في الأسفار التي لم يُسعِفْنا الحظُّ في الوصولِ إليها وما أكثرَها!

وذلك نحو كثير من أحوالِ الذكر والحذف في المفردة ، نحو (تَنزّل) و(تتنَزَّل) ، و(تَوَفَّاهم) و(تتوفَّاهم) ، و(نَبْغ) و(نَبْغِي) ، وغيرها. وذلك كقوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴿٤﴾ ﴾ [القدر] .

وقوله: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت] .

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء] .

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النحل] .

وقوله: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الكهف] .

وقوله: ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يوسف] .

ونحو كثيرٍ من أحوالِ الإبدال في المفردة نحو: (يَضَّرَّعون) و(يتَضَرَّعون) ، و(يَذَّكَّرون) و(يتَذَكَّرون) ، و(اطَّيَّرْنا) و(تَطَّيَّرْنَا) ، وكاستعمال (اللائي) و(اللاتي) وغيرها كقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ ﴿١٨﴾ ﴾ [يس] .

وقوله: ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النمل] .

ولا شك أنَّ كُلَّ مفردةٍ وُضِعَتْ وضعاً فنياً مقصوداً في مكانها المناسب ، وأن الحذف من المفردة مقصودٌ كما أنَّ الذكر مقصودٌ ، وأنَّ الإبدال مقصودٌ كما أنَّ الأصل مقصودٌ ، وكُلُّ تغيير في المفردة أو إقرار على الأصلِ مقصودٌ له غَرَضُهُ ، كما سنبيِّنُ ذاك ما وَسِعَنا البيانُ.

والسبب الآخر الذي دعاني إلى تناول هذه المباحث ، هو أنَّ قسماً مما بحثتُه قد طرقه الباحثون قبلي ، وحاولوا أن يتلمَّسُوا الفروق بين استخدام المفردات ، غير أني لم أقتنع بقسم من هذه التعليلات ، ورأيتُ أن كثيراً منها مُتكلَّفٌ ، فحاولتُ أن أُعَلِّلَها تعليلاً آخَرَ وجدتُهُ أَشْفَى لنفسي وأكثرَ إقناعاً لي ، وأنا لا أزعُمُ أني أتيتُ بأحسنَ مما ذكروه ، وأن توجيهي أصوب مما ذهبوا إليه ، ولكني أذكرُ ما وجدته في نفسي. وهذا نحو توجيه (فعَّل) و(أفعل) بمعنى نحو (نزّل) و(أنزل) ، و(نجّى) و(أنجى) ، كقوله تعالى: ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأعراف] ، وقوله: ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف] .

وقوله: ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يونس] ، وقوله: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الشعراء] .

وكاستعمال الإفراد والتثنية والجمع كالنخل والنخيل.

وتعاوُر المفردات كالعاكفين والقائمين في قوله تعالى: ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة] .

وقوله: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحج] ، وما إلى ذلك.

ثم إن هناك أمراً آخر دعاني إلى تناول مثل هذه الأبحاث ، وهو أني لم أجدْ في شأنِ المفردة في القرآن الكريم وتعليل استعمالاتها كتباً مختصَّةً في حدود ما اطَّلَعْت عليه.

نعم هناك في كتب التفسير وكتب المتشابه وغيرها إشارات إلى سبب اختيار هذه اللفظة في هذا الموضع دون غيرها من المتشابه ، كاختيار (يخرصون) في قوله: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام] ، واختيار (يظنون) في قوله: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [البقرة] . أو استعمال (القسط) في قوله: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يونس] ، واستعمال (الحق) في قوله: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزمر] .

كما أن هناك كتباً في مفردات غريب القرآن قد تذكر الفَرْقَ بين لفظةٍ وأخرى كالفَرْق بين جاء وأتى ، والفَرْق بين الصراط والطريق والسبيل ، والفرق بين (يفعلون) و(يعملون) و(يصنعون) وهو أشبه بما يُكتبُ في الفروق اللغوية. غير أني لم أرَ كتاباً يبحثُ في المفردة في القرآن ويُبَوِّبُها على الموضوعات ويجمعُ ما تَشَابَهَ من ذلك ويدرسُه ، فحاولتُ أن أضعَ بدايةً متواضعةً في هذا الموضوع فلعلَّه يأتي مَنْ يُتِمُّ هذا العملَ ويتوسَّعُ فيه.

وقد ترى أني لم أبحثْ في هذا الكتاب موضوعاتٍ كان من المتوقع أن أبحثها كالإدغام والفَكِّ نحو: ﴿مَن يَرْتَدَّ ۝٥٤﴾ [المائدة] ، و﴿وَمَن يَرْتَدِدْ ۝٢١٧﴾ [البقرة] وكالفروق اللغوية كالخوفِ والخشيةِ ، والشُّحِّ والبُخْلِ، والصراط والسبيل، والاختلاف بين المصادر ونحوها، فأقول:

لقد حاولتُ أن أتجنب كثيراً مما بحثته في كتبي السابقة قدر الإمكان كموضوع الإدغام والفك الذي ترددتْ آياته في أكثرَ من موضوعٍ في كتاب «التعبير القرآني» ، وكتاب: «الجملة العربية والمعنى»، ونحو كثير من معاني الأبنية كالمصادر والجموع وغيرها مما بحثته في كتاب «معاني الأبنية في العربية».

أما الموضوعات الأخرى التي لم أبحثها فإنَّ الكلام فيها يَتَّسعُ اتِّساعاً كبيراً ، فلعلَّ الله ييسرُ لنا أن نكتبَ فيها شيئاً في قابل الأيام.

وهناك أمرٌ مهمٌّ جديرٌ بأن أُنَبِّه عليه ، وما كنتُ لأذكرَهُ لولا أني رأيتُ جملةً من حَمَلَة العلم أشاروا إليه.

وذلك أني في أثناء إلقاء محاضرات في هذا الموضوع على جماعة من أهل العلم ، وعلى طلبة الدكتوراه ، وفي مواقف أخرى طرح سؤال ، وهو أن هذه التعليلات قد تكون مقبولةً بموجب الرسم القرآني الذي بينَ أيدينا ، فكيف يكون التعليل إذا كان الرسم مختلفاً على قراءات أخرى؟

فمثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤﴾ [القمر] . لقد عللنا فيه سبب التعبير بـ (نهر) دون الجمع[1]. فكيف إذا كانت هناك قراءة أخرى: (إن المتقين في جنات وأنهار)؟

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۝٩٧﴾ [النساء] فكيف

(١) انظر كتابنا «لمسات بيانية في نصوص التنزيل» ١٧٠ ـ ١٧٤ .

إذا كانت هناك قراءة أخرى (تتوفاهم)؟

وقوله: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الكهف]، بحذف الياء، فكيف إذا كانت هناك قراءة بإثبات الياء، أي: (ذلك ما كنا نبغي)؟

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ [النمل]. فكيف إذا كانت هناك قراءة بلا إبدال، أي: (قالوا إنا تطيرنا بك)؟

وكاستعمال اللاتي واللائي، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الأحزاب].

وقوله: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء]. وما إلى ذلك!

والجواب: إنَّ أركان القراءة الصحيحة ـ كما هو مقرر ـ ثلاثة:

١ ـ صِحَّةُ السند.

٢ ـ موافقةُ خط المصحف العثماني.

٣ ـ موافقة العربية.

ومتى اختلَّ ركنٌ من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عن العشرة أم عمن هو أكبر منهم.

هذا هو الصحيحُ عند أئمة التحقيق من السلف والخلف[١].

فموافقة رسم المصحف العثماني شرطٌ من شروطِ القراءة الصحيحة، ومتى اختل الشرط فخالفت القراءةُ رسمَ المصحف دخلتْ في الضَّعفِ أو الشذوذ أو البطلان.

وبهذا يزولُ الإشكال، فإنَّ كل قراءةٍ تخالفُ رسمَ المصحف لا تدخلُ في الصحيح.

---

(١) انظر: النشر في القراءات العشر ١/ ٩.

وبهذا يتَّضح أن ليست هناك قراءة صحيحة (إن المتقين في جنات وأنهار) فإن كلمة (أنهار) تخالف رسم المصحف.

وكذلك ما ورد في (تَوَفَّاهم) و(تَتوفَّاهم) فإن (تَوَفَّاهم) تُكتب بتاءٍ واحدة و(تتوفاهم) تكتب بتاءين ، فلا تكون إحداهُما مكانَ الأخرى لأن ذلك مخالفٌ لرسم المصحف.

وكذلك قوله: ﴿مَا كُنَّا نَبْغِۚ﴾ [الكهف] فإنه ليست هناك قراءةٌ معتمدةٌ بإثبات الياء لأنها رسمت في المصحف بلا ياء.

ونحو قوله: ﴿أَطَيَّرْنَا﴾ [النمل] فإنه لا يصح أن تُقرأَ في الموضع نفسه (تطيّرنا) لأنها مخالفة لرسم المصحف.

ونحو اللائي واللاتي ، فإنهما في الرسم العثماني مختلفانِ.

فاللاَّئي ترسمُ بلا صورة للهمزة ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾.

أما اللاَّتي فترسمُ فيها للتاء صورة ﴿وَٱلَّٰتِي﴾.

وكذلك سائرُ ما ذكرناه ، فإنه لا يصحُّ أن يُقْرَأَ بما يخالفُ رسم المصحف ، فسقطت هذه الشبهةُ أصلاً.

وأودُّ أن أذكرَ في الختام أمراً تجدرُ الإشارةُ إليه ، وهو أني حاولتُ أن أعتمدَ في التوجيه والترجيح على الأمور اللُّغوية المسلَّمة ، والقواعد المُقَرَّرة ـ على قدر علمنا المتواضع ـ والاستعانة بالسياق لتلمُّس الفروقِ في الاستعمال ، وهو مهم جداً في الدلالة على سبب الاختيار لئلا تَزِلَّ بنا القَدَمُ ، وتذهبَ بنا بُنَيَّاتُ الطريق.

نسألُ الله أنْ يلهِمَنا الرُّشْدَ ويَهدِيَنا الصِّرَاطَ المستقيمَ.

إنه سميعٌ مجيب.

* * *

الذكر والحذف

قد يحذف في التعبير القرآني من الكلمة نحو (استطاعوا) و(اسطاعوا) ، و(تَتنَزَّل) و(تَنزَّل) ، و(تتوفاهم) و(تَوَفَّاهم) ، و(لم يكن) و(لم يكُ) وما إلى ذلك. وكلُّ ذلك لغرضٍ وليس اعتباطاً. فالتعبيرُ القرآني تعبيرٌ فنيٌّ مقصود ، كل كلمةٍ ، بل كل حرفٍ إنما وُضِعَ لقصدٍ ، كما ذكرنا في كتابنا «التعبير القرآني».

إن القرآن يحذف من الكلمة لغرض ، ولا يفعل ذلك إلا لغرض ، ومن ذلك على سبيل المثال:

أنه يحذف من الفعل للدلالة على أنَّ الحَدَثَ أقلُّ مما لم يحذفْ منه ، وأن زمنَهُ أقصرُ ، ونحو ذلك ، فهو يقتطعُ من الفعل للدلالة على الاقتطاع من الحَدَث ، أو يحذفُ منه في مقام الإيجاز والاختصار ، بخلاف مقام الإطالة والتَّفصيل.

فإذا كان المقامُ مقامَ إيجازٍ أوجزَ في ذكرِ الفعلِ ، فاقتطع منه ، وإذا كان في مقام التفصيل لم يَقْتطِع من الفعل ، بل ذكره بأوفى صورة.

ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه في (التعبير القرآني) وفي (معاني النحو) من نحو قوله تعالى: (لم يكن) و(لم يك) وغيرهما فلا نُعيدُ القولَ فيه[1].

---

(١) انظر: التعبير القرآني ٧٨ وما بعدها، معاني النحو ١/ ٢٤٨ وما بعدها.

ونحو قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف]. وذلك في السدِّ الذي صنعه ذو القرنين من زُبَرِ الحديدِ والنحاس المُذاب. وقد ذكرنا أنَّ الصعود على هذا السد أيسرُ من إحداثِ نقبٍ فيه لمرور الجيش، فحذف من الحدث الخفيف، فقال: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ بخلاف الفعل الشاق الطويل، فإنه لم يحذف بل أعطاه أطولَ صيغة له فقال: ﴿وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ فَخفَّفَ بالحذف من الفعل الخفيف بخلاف الفعل الشاق الطويل.

ثم إنه لما كان الصُّعودُ على السَّدِّ يتطلَّبُ زمناً أقصرَ من إحداث النَّقْب فيه حذفَ من الفعل وقصّر منه ليجانس النُّطْقُ الزمنَ الذي يتطلبه كُلُّ حدث.

ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القدر].

وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء].

فقال في هذه الآيات (تَنزّل).

في حين قال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت].

فقال في آيتي القدر والشعراء (تَنَزَّل) بحذف إحدى التاءين، وقال في (فُصِّلَتْ): (تتنَزَّل) من دونِ حذفٍ، وذلك ـ والله أعلم ـ أن التَّنزُّلَ في آية (فصلت) أكثر مما في الآيتينِ الأُخريينِ، ذلك أن المقصود بها أن الملائكة تنزل على المؤمنين عند الموت لتبشرهم بالجنة[1]. وهذا يحدثُ

---

(١) انظر فتح القدير ٤/ ٥٠١، روح المعاني ٢٤/ ١٢١.

على مَدَار السنةِ في كلِّ لحظة. ففي كل لحظة يموتُ مؤمنٌ مستقيمٌ، فتتنزَّلُ عليه الملائكة لتبشره بالجنة. فأعطى الفِعْلَ كلَّ صيغتهِ ولم يحذفْ منه شيئاً.

وأما آية الشعراء فإنَّ التَّنزُّلَ فيها أقلُّ، لأنَّ الشياطين لا تتنزَّل على كلِّ الكفرةِ، وإنما تنزلُ على الكهنة، أو على قسم منهم، وهم الموصوفون بقوله: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾. ولاشكَّ أن هؤلاء ليسوا كثيراً من الناس، وهم ليسوا بكثرة الأولين ولا شطرهم، بل هم قلةٌ فاقتطع من الحَدَث، فقال: (تنزّل) بحذف إحدى التاءين.

وكذلك ما في آية سورة القدر، فإن تَنزُّلَ الملائكةِ إنما هو في ليلةٍ واحدة في العام، وهي ليلةُ القَدْر، فهو أقلُّ من التَّنزُّل الذي يحدثُ باستمرار على مَنْ يحضرُهُ الموتُ، فاقتطع من الحَدَث.

فأنت ترى أنه اقتطع من الفعل إحدى التاءين في آيتي الشعراء وآية القدر لأنَّ التَّنزُّلَ أقلُّ، ولم يحذفْ من آية (فصلت) لأنه أكثر، والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ ﴿٩٩﴾﴾ [النساء].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النحل].

فقال في آية النساء: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ بحذف إحدى التاءين، وقال في سورة النحل: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ من دون حذف، ذلك أن المُتَوَفَّيْنَ في (سورة النساء) هم جزءٌ من الذين هم من (النحل). فالذين في (النحل) هم الذين

ظلموا أنفسهم من الكافرين على وجه العموم.

وأما الذين في (النساء) فهم المستضعفون منهم، فهم قسمٌ منهم. فلما كان هؤلاءِ أَقَلَّ حذف من الفعل إشارة إلى الاقتطاع من الحَدَث، وإلى قِلَّتِهِ بالنسبة إلى الآخرينَ. فقال في القسم الأكبر: ﴿تَتَوَفَّاهُمُ﴾ وقال في القسم القليل: ﴿تَوَفَّاهُمُ﴾ بحذف إحدى التاءين. فناسب بين الفعل وكثرة الحدث.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب].

وقوله: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء].

فقال في آية الأحزاب: ﴿تَبَدَّلَ﴾ بحذف إحدى التاءين، وقال في آية النساء: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا﴾ من دون الحذف، ذلك أن آية الأحزاب حُكْمُها مقصورٌ على الرسولِ ﷺ فهو منهيٌّ عنْ أنْ يتبدَّلَ بأزواجه أزواجاً.

أما الآية الثانية، فهي حكمٌ عامٌّ للمسلمينَ على مرِّ العصور، فقال في الحكم المحدَّد والحَدَث المقصورِ على شخصٍ واحد (تَبَدَّل) بالحذفِ من الفعل، وقال في الحكم العام المُمْتَدِّ على مر العصور: (تتَبَدَّلوا) فجاء بالصيغة القصيرة للحَدَث القصير، وبالصيغة الطويلة للحَدَث الطويل الممتدِّ.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ [آل عمران] .

وقوله: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشورى] .

فقال في آية آل عمران: ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ بحذف إحدى التاءين ، وقال في آية الشورى: ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ ﴾ وذلك لأكثر من سبب منها:

١ ـ أنّ آية آل عمران خطابٌ للأمة الإسلامية ، وأما آية الشورى فالكلام فيها على أمم مختلفة وشرائعَ متعدِّدةٍ ذكر منها شريعة نوح ، وشريعة سيدنا محمد وإبراهيم وموسى وعيسى. فلما كانت هذه في أمم متطاولةٍ على مدى التاريخ ، جاء بالصيغة التي هي أطول. ولما كانت الآية الأولى في أمة واحدة ، وهي أمة محمد ، وهي جزءٌ من الأمم المذكورة في الشورى ، جاء بجزء من الفعل ولم يأت به كُلِّه.

٢ ـ أنّهُ نهى الأمة الإسلامية عن أي شيء من التَّفَرُّق ، مهما كان قليلاً أو جزئياً ، وحَذَّرَ من ذلك فقال: ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ فاقتطع من الفعل للدلالة على النهي عن أي شيء من التفرق ، مهما قَلَّ وضَؤُلَ.

ثم إن الملاحَظَ أنَّ تحذيرَ الأمة الإسلامية من التفرق ونهيها عنه أشد:

١ ـ فقد خاطب المؤمنين بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ آمراً وناهياً ومحَذِّراً.

٢ ـ ثم أمرهم بالوحدة والاعتصام بحبل الله فقال: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ ثمَّ أكَّدَ ذلك بالحالِ المؤكدة فقال: ﴿جَمِيعًا﴾ للدلالة على أنَّ ذلك مطلوبٌ من جميع أفراد الأمة بلا استثناء، وأنه لا تُغني الكثرةُ الكاثرةُ من المتحدين المعتصمين، بل ينبغي أنْ يكون ذلك على سبيل العموم والاستغراق، فلا يشذّ أحدٌ منهم. ولا تُنجي الكثرة المعتصمةُ، أو تعفي الفردَ غيرَ المعتصم من المحاسبة والعقوبة.

٤ ـ لم يكتف بالأمر السابق، بل نهاهم بصريح العبارة إضافة إلى ذلك فقال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾.

٥ ـ التذكير بنعمة الله عليهم في التأليف بين قلوبهم.

٦ ـ نهاهم عن أن يتشبهوا بمن تفرق واختلف فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ﴾.

٧ ـ توَعَّدهم على ذلك بالعذاب العظيم.

٨ ـ لقد أطلق العذاب ولم يُقيِّده بزمن، فلم يقلْ: (وأولئك لهم في الآخرة عذاب عظيم) كما قال في مكان آخر: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة] للدلالة على أنَّ عذابَ التفرق يَطُولُهم في الدنيا والآخرة.

ومن الملاحظ أنه جاء بـ (أنْ) التفسيرية في آية الشورى ولم يُخَاطبْهم مخاطبةً صريحةً فقال: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾، في حين نهاهم نهياً مباشراً في آل عمران فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ... وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ والكلامُ المباشرُ الصريحُ أهَمُّ وآكَدُ من المُفَسَّر. فقولك: (قلتُ له: يا فلان افعلْ) أَهَمُّ وآكدُ من قولك: (أوْصَيتُـهُ أنِ افعلْ).

وهناك ملاحظة أخرى في التعبير أنه جاء بالاسم الموصول (ما) في شرائع الأمم الأخرى ، وجاء بـ (الذي) في شريعة سيدنا محمد ﷺ فقال : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ (ما) وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا . . . وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ . . . ﴾ ، في حين قال : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴿١٣﴾ ﴾ ذلك أن (الذي) أعرف من (ما) كما هو معلوم[١] .

فلما كانت شريعةُ سيدنا محمد ﷺ أعرفَ من شرائع الأمم الأخرى لنا ، لأننا نعرفها كلَّها ، جاء بـ (الذي) ، ولما كانت شرائعُ الأمم الأخرى ليست بمنزلة شريعةِ سيدنا محمد من حيثُ معرفتنا بها ، فإنا نعلمُ ما أعلَمَنا به ربُّنا في القرآن الكريم ، جاء بـ (ما) والله أعلم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنفال] .

وقوله : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود] .

فقال في آية الأنفال : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا۟ ﴾ بحذف إحدى التاءين ، وقال في آية هود : ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ ﴾ من دونِ حذف ، ذلك أنَّ آيةَ الأنفال خطابٌ للمؤمنين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ ، وأنَّ آية هود خطابٌ للكافرين ، وهم قومُ هود .

ومن المعلوم أن تَوَلِّيَ المؤمنين أقلُّ مِنْ تَوَلِّي الكافرين ، ذلك لأن المؤمنينَ مُطِيعونَ لله ، بخلاف الكَفَرة . فلما كان تَوَلِّي المؤمنين أقلَّ حذف من الحَدَث للدلالة على قِلَّة تَوَلِّيهم ، بخلاف تَوَلِّي الكافرين ، فإنه

---

(١) انظر : معاني النحو ١/ ١٤٩ .

عامٌّ شامل ، فهو يشمل تولِّي المؤمنين وزيادة ، فزاد في الفعل للدلالة على زيادة تولِّيهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه نهى المؤمنين عن التولي مهما كان قليلاً ، فقال : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا ﴾ ، وهو نظير ما ذكرناه آنفاً في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الفتح] .

فقال : ﴿ تَتَوَلَّوْا ﴾ بتاءين ، ذلك أن هؤلاء الأعراب لم يكونوا مِمَّنْ تَمَكّنَ الإيمانُ في قلوبِهم ، وأنَّ تَخَلُّفَهم كان تَخَلُّفَ نِفاقٍ[1] بدليلِ ما قبلها من الآيات ، فقد قال تعالى فيهم :

١ ـ ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ ﴿١١﴾ ﴾ .

٢ ـ ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ .

٣ ـ ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴿١٢﴾ ﴾ .

٤ ـ ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ .

فجاء بالتولي تاماً .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤/ ١٨٩ .

نَفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد] .

فقال: ﴿تَتَوَلَّوْا﴾ بتاءين أيضاً، ذلك أن المقصود بالتولّي هنا هو التولي عن الإيمان والتقوى[1]، فجاء بالتولي تاماً، فلم يحذف من الفعل.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة] .

فقال: ﴿تَصَدَّقُوا۟﴾ بحذف إحدى التاءين، والأصل: (تتصدقوا) ذلك لأن هذه من أحوال الصدقة النادرة، وهو التَّصَدُّقُ بدَين المُعْسِر، فحذَفَ لما لم يكن كالصدقة المعتادة لكونها أقلَّ.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف] .

بعدم الحذف من الفعل (تستطع) في الآية الأولى، وحذف التاء منه في الآية الثانية، وذلك أن المقام في الآية الأولى مقامُ شرحٍ وإيضاحٍ وتبيينٍ، فلم يحذفْ من الفعل.

وأما الآية الأخرى فهي مقامُ مفارقةٍ ولم يتكلَّمْ بعدها بكلمة وفَارَقَهُ فحذف من الفعل.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام] .

وهذا كلامُ سيدنا إبراهيم مع قومه ومحاجّته لهم وهم ناسٌ عريقون في الشرك وعبادة الأوثان، فهم محتاجون إلى التذكر وإدامة التفكر

---

(١) انظر: البحر المحيط ٨/ ٨٦، فتح القدير ٥/ ٤١، روح المعاني ٢٦/ ٨٢.

والتأمل ، ليهتدوا إلى التوحيد ، كما فعل سيدنا إبراهيم وهو ينظر في ملكوت السموات والأرض، يبحثُ عن ربه وخالقه ، فظنه الكوكبَ بادئ ذي بدء ، ثم ظنه القمر ، ثم ظنه الشمس ، حتى اهتدى إلى خالقه بعد التأمل والنظر والتفكر ، وهذا الأمر ذكره ربنا قبلَ هذه الآية (الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩) ، ثم انتهى إلى المُحَاجَّة مع قومه: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾ (الآية).

فهذا مما يحتاج إلى طول تَذكُّرٍ وتفكير، فجاء بالفعل كاملاً لم يحذف منه شيئاً ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ كما ناسب من ناحية أخرى مقامَ التفصيل والإطالة فيما حكى عن سيدنا إبراهيم واهتدائه إلى الحق من رؤية الكوكب فالقمر ثم الشمس، ثم انتهى إلى الحقيقة الكبرى حقيقة التوحيد.

ومنه قوله تعالى: ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [هود] .

وهذا مما لا يحتاجُ إلى طولِ تأملٍ أو تذكر أو تفكير ، فإنك إذا سألتَ أيَّ فردٍ من عقلاء خَلْقِ الله: هل يستوي رجلٌ أعمى أصمُّ ورجل بصيرٌ سميعٌ؟ أو هل يستوي الأعمى والبصيرُ والأصمُّ والسميعُ؟ كان جوابُه: كلاّ لا يستويان.

فحذف من الفعل للدلالة على أنَّ هذا لا يحتاج إلى طول تذكر وتأمل.

وقد تقول: ولكنه قال: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [غافر] ، فقال: ﴿ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ بتاءين فما الفرق؟

والجواب: أنَّ الفَرْقَ واضحٌ بين الآيتين ، ذلك أنَّ آية غافر هذه في الذين كفروا الذين يجادلونَ في آياتِ الله بغيرِ سلطانٍ أتاهم ، وهؤلاء لا يَرَوْنَ أن المؤمنينَ أفضلُ منهم ، بل على العكس من ذلك ، فإنهم

يَـرَوْنَ أنفُسَهم أفضلَ من المؤمنينَ. فهم لا يُقِرُّونَ بهذا القول إقرارَهم بالآية السابقة ، خصوصاً وأنه عبَّر عن الكافر بالمسيء.

جاء في «فتح القدير» في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ﴿٥٨﴾﴾: «أي: لا يستوي المحسن بالإيمان والعمل الصالح والمسيء بالكفر والمعاصي. وزيادة (لا) في (ولا المسيء) للتأكيد»(١).

وجاء في «تفسير ابن كثير» في تفسير هذه الآية: «أي: لا يستوي الأعمى الذي لا يُبصِرُ شيئاً ، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بَصَرُهُ ، بل بينهما فرقٌ عظيم. كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجَّار: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقلّ ما يتذكر كثير من الناس»(٢).

فهم يحتاجون إلى طولِ تذكرٍ وتفكرٍ ، ليعلموا أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أفضلُ من الكافر ، وأن الكافر مسيء. فهذه هي أصل المسألة وعليها مَدارُ الخلاف.

فالفرقُ واضحٌ بين الآيتين. فإنَّ آية هود ليس فيها خلافٌ ويستوي جميع عقلاءِ الخَلْقِ في إقرارها مؤمنهم وكافرهم من دون تفكيرٍ ولا طولِ تذكر، ولذا قال في آية هود: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ ولم يقرر ذلك بل ترك الجواب لمن يجيبُ، وهو معلومٌ، في حين قرَّر ذلك في آية غافر ولم يسألُ، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ . . .﴾. لأن جوابَ هذا السؤال فيه اختلافٌ ، وليس بمنزلة السؤال الأول، فالفرقُ واضحٌ بينهما.

ونحوه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) فتح القدير ٤/ ٤٨٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٨٥.

فإنَّ الجوابَ واضح من دون حاجة إلى طول تأمل وتذكر ، فقال: ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية] .

فلو سألتَ أيَّ شخصٍ هل بإمكانِه أن يهديَ شخصاً هذا شأنه:

١ ـ أنّه اتَّخَذَ إلهَهُ هواه.

٢ ـ أضلَّه الله على علم.

٣ ـ ختم على سمعه.

٤ ـ ختم على قلبه.

٥ ـ جعل على بصرِهِ غِشاوةً.

لأجاب بالنفي ولقالَ إنه ليس بوسع أحدٍ أنْ يهديَ مثلَ هذا الشخصِ غيرُ الله. والإجابةُ عن هذا لا تحتاجُ إلى طولِ تأمُّلٍ وتفكير.

فإنه ليس بوسع أحد أن يهديَ شخصاً لا يسمعُ ولا يرى ولا يفقهُ ، فكيف بمن اتَّخذ إلهه هواه مع كل ذلك؟

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف] .

فقال: (تَذكرون) بتاء واحدة ، وذلك أنها خطابٌ للمؤمنين ، فقد جاء قبل هذه الآية قوله: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴿٣﴾ ﴾ .

والمؤمنونَ لا يحتاجونَ إلى طول تذكُّرٍ لاتِّباع ما أُنْزِل إليهم من ربِّهم ، بل إنهم بتذكُّرٍ قليلٍ يفعلونَ ذاك. فحذف من آية الأعراف لذلك.

جاء في «تفسير فتح القدير»: في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ . . . ﴾: «يعني الكتاب، ومثله السُّنَّة لقوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر] ونحوها من الآيات، وهو أمرٌ للنبي ﷺ ولأمته. وقيل: هو أمر للأُمَّةِ بعد أمره ﷺ بالتَّبليغ. وهو مُنَزَّلٌ إليهم بواسطة إنزاله إلى النبي ﷺ ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ ﴾ نهيٌ للأمَّة أن يَتَّبِعوا أولياءَ من دونِ الله يعبُدُونهم ويجعلونَهم شركاءَ لله»[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ [السجدة].

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس].

فقال في السجدة: ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾، وقال في يونس: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، وذلك لأنه فَصَّلَ في السجدة ما لم يُفَصِّلْ في يونس وذلك:

١ ـ أنه قال في يونس: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴿٣﴾ ﴾.

وقال في السجدة: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ فزاد في السجدة: (وما بينهما).

٢ ـ قال في يونس: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ ﴾.

---

(١) فتح القدير ٢/ ١٧٩.

وفصَّلَ في السجدة فقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

ففصَّلَ ما أجمله في يونس.

٣ ـ قال في يونس: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾.

وقال في السجدة: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ فزاد الولي.

فأطال في فعل التذكر في السجدة فقال: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ وحذف من الفعل في يونس فقال: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ مناسبةً للمقام.

ومن الذكر والحذف في الفعل قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ ﴿٦٤﴾﴾ بحذف الياء من الفعل.

وقوله: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ ﴿٦٥﴾﴾ [يوسف].

بعدم الحذف، ذلك أن الحَدَث مختلفٌ في الآيتينِ، وأن السِّيَاقَ يُوضحُ ذلك:

قال تعالى في (الكهف): ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾.

ونسيانُ الحوتِ ليس هو ما يبغيه موسى على وجهِ الحقيقةِ، وإنما يبغي الشخصَ الذي يريدُ موسى أن يتعلَّمَ منه.

وأما في سورة يوسف فالطعامُ هو ما يبغون، وهو سببُ رحلتهم، ففرَّقٌ بين البُغْيتين. فلمَّا كان ما في الكهف ليس هو ما يبغون حذف من الحدث إشارة إلى عدم إرادة هذا الحَدَث على وجه التمام، وإنما هو علامة على الموضع الذي يجدون فيه بغيتهم.

ولما كان ما في يوسف هو بغيتهم ذكر الفعل كاملاً ولم يحذف منه. فناسب كلٌّ مقامَهُ والله أعلم.

٢ ـ قد تُحذفُ ياء المتكلم ويُجْتَزَأُ عنها بالكسرة وذلك لا يكونُ إلا لغَرَض، فإنه قد تُذكرُ الياءُ في مقام الإطالة والتفصيل، وتُحذفُ ويُجتزأُ عنها بالكسرة في مقام الإيجاز والاختصار. وقد تُحذفُ لغرض آخَرَ يقتضيه المقامُ إضافةً إلى ذلك، وذلك كأن يكون المقامُ يقتضي إظهار النفس أكثرَ من مقام آخَرَ وذلك نحو قوله تعالى:

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة] بذكر الياء.

وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴿٣﴾﴾ [المائدة].

وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة].

بحذف الياء منهما. وذلك لأكثر من سببٍ منها:

١ ـ أنَّ مقامَ الإطالة والتفصيل في سورة البقرة أكثرُ بكثير من سياق الآيتين الأخريين. فإن الكلام على تحويل القِبْلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وهو يبدأ بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴿١٤٢﴾﴾، ويستمر إلى الآية ١٥٠.

أما آية المائدة ذات الرقم ٣، فهي آيةٌ واحدة في الأطعمة المُحَرَّمة، وهو قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

وأما الآية الأخرى ، فهي في سياق الكلام على التوراة في آيتين ، وهما قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۖ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ۚ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ . . . ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة] .

فاقتضى ذلك الزيادة في البناء (اخشوني) في البقرة دون الآيتينِ الأُخْرَيَيْنِ.

٢ ـ أن آية البقرة في تحويل القبلة من بيت المقدس ، وقد أثار ذلك فتنةً ومُلاحاةً وإرجافاً من المشركين واليهود ، حتى قال المشركون: «إنَّ محمداً تَحَيَّرَ في دينه»[(١)] . وحتى ارتدَّ قسمٌ من ضِعاف الإيمان[(٢)] .

وقد ذكر القرآن هذا الأمر فقال: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ ﴿١٤٢﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ ﴿١٤٣﴾ ﴾ .

﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴿١٤٣﴾ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ ﴿١٤٥﴾ ﴾ .

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ .

---

(١) فتح القدير ١/ ١٣٦، ١٣٧ .

(٢) انظر: روح المعاني ١/ ٥ .

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ . . . إلخ .

أما آية الأطعمة المحرمة فليس فيها ملاحاةٌ ولا إرجاف ولا إثارة ، ثم هي بعد انتصار المسلمين وعِزّة الإسلام واكتمال الدين ، فقد قال تعالى فيها : ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة] .

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴿٣﴾ ﴾ .

وكذلك آيتا التوراة ليس فيهما إثارة ولا خصومة ، فقد ذكر أنَّ التوراة أُنزلت فيها هدىً ونور يحكمُ بها النبيون الذين أسلموا لليهود ، ويحكم بها الربانيون والأحبار . وليس فيها ما يستدعي ملاحاةً ولا فتنة .

فاقتضى المقام في آية البقرة ذكر نفسه ـ سبحانه ـ والتخويف منه وإظهار نفسه لخشيته أكثر من المقامين الآخرين .

٣ ـ إنَّ الشخصَ يُذَكَّرُ بالله ، ويُخَوَّفُ منه على قدر العمل الذي يُطلبُ منه القيام به ، أو يحذرُ من القيام به ، فكلما كان العملُ أكبرَ كان التذكيرُ بالله والتخويفُ منه أشدَّ . فالذي يقدم على القتل ليس كمن يعتدي على آخر بالسَّبِّ أو الضربِ ، فإن المقدم على القتل يُخَوِّفُ بالله ويحذَّر أكثر بكثير من الشخص الآخر .

وكذلك إذا طلب من شخص أنْ يقومَ بأمر لا ينهضُ به غيرُهُ ، كأن يُطْلبَ منه الوقوف في وجه ظالمٍ طاغٍ أو محاربة صائلٍ ، فإنه يُذَكَّرُ بالله ويخَوَّف منه إذا أحجم عن ذلك، أكثر بكثير من آخرَ ليس بمثلِ هذه المنزلة .

ولا شك أنَّ التحوُّلَ في القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة فيه من الإرجاف والفتنة ومظنَّةِ الارتداد عن الدين ما ليس في الأمرين الآخرين ،

فاقتضى ذلك إظهار الله لنفسه بذكر الياء، فقال: ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾ وأن يجتزئَ بالكسرة إشارةً إلى المتكلم في الموطِنينِ الآخَرين.

٤ ـ إن آيات البقرة فيها توكيدات، وهي تناسب هذا الإظهار، منها قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴿١٤٣﴾﴾، ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ . . . ﴿١٤٥﴾﴾، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾. ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ ﴿١٤٩﴾﴾، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾، وغيرها.

فاقتضى ذلك إظهارَ الياء في البقرة دونَ الآيتين الأخريين.

ومن ذلك قولُه تعالى على لسان المُتَوَفَّى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون]. بذكر الياء في (أخرتني).

وقوله على لسان إبليس: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء]. بحذف الياء منه.

والفرق بين المقامين ظاهرٌ، ذلك أن طلبَ إبليسَ «لا يُريدهُ من أجل نفسه، ولا لأنه محتاجٌ إليه، وإنما يريدُه لِيُضِلَّ ذُرِّيَّةَ آدَمَ. ثم إنَّ هذا الطلبَ لا يعودُ عليه بنفعٍ ولا يدفعُ عنه ضُراً، وليست له مصلحةٌ فيه، بل العكس هو الصحيح، بخلافِ الطلبِ الآخر، فإنه يريدُه لنفسه حقاً وأنه لا شيءَ ألزمُ منه لمصلحته هو ودفع الضَّرَر عنه.

فلما كان طلبُ التأخير لمصلحة الطالب حقّاً، وأنه ابتغاه لنفسه على وجه الحقيقة أظهرَ الضميرَ. ولما كان طلبُ إبليسَ ليس من أجل نفسه ولا يعود عليها بالنفع حذف منه الضمير واجتزأ بالكسرة.

ثم في الحقيقة إن كلام إبليس ليس طلباً، وإنما هو شرطٌ دخل عليه القسمُ، فقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ فهو من باب الطلب الضمني، وليس من باب الطلب الصريح.

وأما قوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ فهو طلبٌ صريح، ففرَّق تبعاً لذلك بين التعبيرين. فصرَّحَ بالضمير وأظهر نفسه في الطلب الصريح، وحذف الضمير واجتزأ بالإشارة إليه في الطلب غير الصريح. وهو تناظرٌ جميل، ففي الطلب الصريح صَرَّح بالضمير، وفي الطلب غير الصريح لم يصرح بالضمير»[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف].

فقال في الآية الأولى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ بلا ياء، وقال في الآية الثانية: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ بالياء، ذلك أن الآية الأولى في الدخول في الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران].

وأما الآية الثانية فهي في الدعوة إلى الله، وهي خصوصيَّة بعد الدخول في الإسلام.

ولاشك أن الدعوةَ إلى الله تتطلبُ علماً وبصراً بأحكام الإسلام أكثر من مجرد الدخول في الإسلام، لأنها مقامُ تبليغٍ، وهذا لا يكونُ إلا عن علمٍ وبصيرة، وخاصة أنه قال: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾.

---

(١) لمسات بيانية (من سورة المنافقون) ١٨٨ ـ ١٨٩.

ثم إنها تتطلبُ اتّباعاً للرَّسولِ أكثر في القول والعمل ، فإنَّ الذي يقفُ نفسَه للدعوةِ إلى الله ينبغي أنْ يكون شديدَ الالتزام بتعاليم الإسلام والاتّباعِ لرسولهِ الكريم قولاً وعملاً ، حتى يكونَ مقبولاً مُجاباً .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنَّ المذكورينَ في آية يوسف داخلون في الآية الأولى ، فهم مسلمونَ ، وأما المذكورونَ في آية آل عمران فلا يُشترطُ أن يكونوا داخلينَ في آية يوسف ، إذ ليس كلُّ مسلم داعياً إلى الله على بصيرةٍ ، وبذا يكون اتّباعُ الرَّسول في آية يوسف أكثرَ . فهو يشملُ الاتّباعَ الأوّلَ وزيادةً ، فكان ذكرُ الياء فيها أولى من الاجتزاء بالكسرةِ ، لأن الياءَ عبارةٌ عن الكسرة وزيادةٌ ، فلما زاد الاتّباع زاد بذكر الياء ، فوضع كل تعبير في مكانه المناسب ، والله أعلم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود] . بحذف الياء من (تسألن) .

وقوله : ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الكهف] بذكرها .

إنَّ الآية الأولى هي في سؤال نوح لربه بعد ما غرق ابنهُ قائلاً : ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ، فقال له ربه : ﴿ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ ﴿٤٦﴾ ﴾ . . . الآية .

وأما في آية الكهف فهي في اشتراط الخَضِر على موسى إذا صَحِبَهُ أنْ لا يسألَهُ عن شيءٍ حتى يكونَ هو الذي يُخبرُهُ .

فحذف الياء من آية هود وذكرها في آية الكهف . وبالنظر في السياقين يتضح ما يأتي :

١ ـ في قصة موسى والخَضِر أنَّ الخَضِرَ كان يتوقَّعُ أنْ يسألَهُ موسى عن كلِّ عملٍ يقومُ به مما لا يدركُ حكمتَهُ. وأحداثُ المصاحبة بينهما قائمةٌ كلُّها على أنَّ الرجلَ الصَّالحَ يعملُ أعمالاً مستنكرةً فيما يرى موسى، فيستنكرُ ويعترضُ أو يسألُ. إذن فالقصَّةُ كلُّها تدورُ حولَ ما يفعلُه الخَضِرُ واعتراض موسى. في حين أنه لم يكنْ في قصة نوح إلا سؤالٌ واحد، وهو عن شأن ابنِه.

فاقتضى مقامُ الإطالة والتفصيل في الكهف ذكرَ الياء دون هود.

٢ ـ إن موسى سأل عن ثلاثة أمورٍ مُشاهَدة، في حين سأل نوح أمراً واحداً، فناسب الإطالة بذكر السؤالات وتعدُّدِها أن يذكرَ الياء في الكهف.

٣ ـ كان التحذيرُ من السؤال في هود أشدَّ مما في الكهف. وقد عَقَّبَ على سؤال نوح بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وليس الأمر كذلك في الكهف، بل ألمح إلى أنه سيُعلِّمهُ حِكْمةَ ما يقومُ به فيما بعدُ، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

فناسب ذلك حذف الياء في هود إشارة إلى النهي عن أصلِ الحَدَث، بخلاف ما في الكهف.

ومن نافلةِ القولِ أنْ نقولَ: إنَّ السؤال يختلفُ في الآيتين. فالسؤالُ في الكهف هو سؤالُ الاستفهام والاستفسار، ولذا عَدَّاهُ بعن فقال: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾. أما سؤال نوح فإنه سؤالُ طَلَبٍ كما تقول: سألته حاجةً، ولذلكَ عدَّاه بنفسه.

وقد يكون ذكر الياء وحذفها لغرضٍ آخر قريب مما مَرَّ وهو أنْ يكون ما فيه الياء أوسع وأشمل مما حذفت منه الياء، وذلك نحو ما ورد من ذكر ياء المتكلم وحذفها من كلمة (عباد) و(عبادي). فما ذُكِرَتْ فيه الياءُ أوسعُ

وأشمل مما حُذفت منه. فكأنَّ طول البناء إشارة إلى سَعَةِ المجموعة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر].

فالعباد هنا قاعدةٌ عريضةٌ واسعة، فالذين أسرفوا على أنفسهم هم الأكثرون.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف].

وقال: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام].

وقال: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ] فذكر الياء.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة].

فالعباد هنا كُثرٌ، وهم عُموم العباد، فهم إذا سألوه فهو قريبٌ منهم يجيبُ داعيهم، فذكر الياء.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء]. وهو طلبٌ من عمومِ عبادِ الله لم تُقيّد بقيد، وإنما هي مطلقة فذكر الياء.

وقوله: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [العنكبوت].

والمؤمنون أيضاً طبقةٌ واسعة، إذ هم لم يقيدوا بغير الإيمان.

وقد تقول: ولكنه قال في مكان آخر: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر] .

والحق أنَّ الفرقَ بينهما واضح من وجوه منها:

١ ـ أنه قال في آية الزمر: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ﴾ فخصص الذين آمنوا بطلب التقوى، فضيَّقَ دائرةَ المؤمنين، وذلك أن عمومَ المؤمنين أكثرُ من المتَّقِينَ، في حين أنه لم يُقَيِّدْهم بغيرِ الإيمان في العنكبوت، فهم طبقةٌ أوسعُ.

٢ ـ طلب في آية الزمر من المؤمنين التقوى، وطلب في آية العنكبوت العبادة، والعبادة أوسعُ من دائرة التقوى، وبهذا اتَّسعت الصِّفَةُ في آية العنكبوت، وشملتْ جماعةً أكبرَ. فالمُتَّقونَ أقلُّ ممن يقومونَ بالعبادات على العموم، فليس كلُّ منْ يقومُ بالعبادةِ مُتَّقياً.

٣ ـ ومما حَسَّنَ إظهارَ الياء في (عبادي) في العنكبوت قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ ﴾ فأضاف الأرض إلى الياء (أرضي). فالأرضُ أرضُه والعبادُ عبادُه، فأظهرَ ضميرَ المتكلم في الموطنين في المسكن والساكن (عبادي).

في حين لم يُضِفْها إلى الياء في آية الزمر، وإنما قال: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾. وههنا أمرٌ آخر، وهو أنه لا يَحْسُنُ إضافةُ الأرضِ إلى ياء المتكلم في الزمر، لأنه قال: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ﴾ فلو قال: (وأرضي واسعة) لأوهم ذلك أنَّ الأرضَ أرض المبلّغ أي أرض الرسول، فيكون المعنى: قل لهم: إن أرضي واسعة، فهذا يحتملُ أن تكونَ الأرض لله، وأن تكونَ للرَّسول، فلما قال: ﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ رفع هذا الاحتمالَ، بخلافِ ما في آيةِ العنكبوت، فإنه قال فيها: (يا عبادي)، ولم يقل: (قل يا عبادي).

فإضافةُ الأرض إلى ياء المتكلِّم في العنكبوت أنسبُ ، وإضافتُها إلى الله في آية الزُّمَر أنسبُ. والأرضُ مما يصِحُّ أن تُضافَ إلى الله وإلى غيره ، فتقول: أرض فلان ، وأرض الله. قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب].

٤ ـ ثم إنَّ سَعَةَ الأرض مؤكَّدةٌ في آية العنكبوت دونَ آية الزُّمَر ، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ ﴾ فوسع مجموعة العباد مناسبة لهذه السَّعةَ ، في حين قال في آية الزمر: ﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ من دون توكيد.

٥ ـ قال في آية الزمر: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

وقال في آية العنكبوت: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾.

والصابرون قليلٌ ليسوا كُثْراً ، فهم جزءٌ ممن يذوقون الموتَ الذين ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ . . . ﴾ ، فهذه تشملُ كُلَّ عبادِ الله ، بخلاف آية الزمر.

فلما توسعت دائرةُ العباد في العنكبوت قال: ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ﴾ بالياء ، فأظهرَ الضمير ، ولمّا قلّل العباد في الزمر حذف الضمير.

٦ ـ ذكر ضمير المتكلم مع العبادة مرتين في العنكبوت فقال: ﴿ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾. فالضمير الأول هو: (إيّاي) ، والثاني: (الياء) المحذوفة من (اعبدون).

في حين قال في الزمر: ﴿ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ من دون ذكرٍ لضمير المتكلم ، فلم يقل: (فاتقون) ولا (وإياي فاتقون).

فناسب ذلك إبراز الضمير مع العباد في آية العنكبوت دون الزمر.

٧ ـ قال في العنكبوت: ﴿ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فذكر مرجع الخَلْق إليه بذكر

ضمير المتكلمين في (إلينا) ، فناسب إبراز ضمير المتكلم مع العباد ، فإن عباده يرجعون إليه .

٨ ـ قال في آية الزمر : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، وهذا الجزاء ليس متَّسِعاً اتِّساعَ ما قال في العنكبوت وهو : ﴿ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ ، فليس كلُّ العبادِ يُوَفَّوْنَ أجْرَهم بغيرِ حسابٍ ، ولكنَّهم كُلَّهم يرجِعونَ إليه ، فاتَّسعتِ الدائرةُ في العنكبوت فزاد الياء .

٩ ـ ثم إن ضمائرَ المتكلم في آية العنكبوت أكثر مما في آية الزمر ، فليس في آية الزمر غير ضميرٍ محذوفٍ ، دَلَّتْ عليه الكسرةُ في قوله : (يا عبادِ) .

في حين أنَّ في آيةِ العنكبوت خمسةَ ضمائر للمتكلِّم ، والمتكلم المعظِّم نفسَهُ، وهي ضمير المتكلم في (عبادي)، والضمير في (أرضي)، والضمير (إيَّاي) ، والضمير الذي دلَّتْ عليه الكسرة في (فاعبدونِ) ، والضمير المعظم نفسه في (إلينا) .

فَحَسُنَ إبرازُ الضمير في آية العنكبوت دونَ آيةِ الزمر .

١٠ ـ ثم إنَّ لفظ العموم (كل) في العنكبوت مما حسن إبراز الضمير ، لأنه يدل على العموم والشمول ، إذِ اتَّسَعَتْ به دائرةُ العباد اتِّساعاً شاملاً ، بحيث لم يستثنِ أحداً منهم ، بخلاف ما في العنكبوت .

١١ ـ إن سورة الزمر تكاد تكون مبنية على ضمير الغيبة ، وعلى الالتفات من المتكلم إلى الغيبة ، بخلافِ سورة العنكبوت ، فإنها مبنيةٌ على ذكر النفس . فإنه بعد أنْ قال في الزمر : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴿٢﴾ ﴾ التفت إلى الغيبة فقال : ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ ولم يقل : (فاعبدني) . ثم سار الكلامُ على هذا النسق فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ . . . إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ . . . إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ

كَذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ . . . هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ . . . يُكَوِّرُ اللَّيْلَ . . . وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ . . . أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿٦﴾ . . . وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ . . . ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم ﴿٧﴾﴾ .

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ . . . ﴿٨﴾﴾ فقال: (دعا ربه) ولم يقل: (دعانا) كما قال في موطن آخر.

ثم انظر التناسب اللطيفَ بين قوله: (دعا ربه) وقوله: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴿١٠﴾﴾ بذكر (الرب) وهكذا يسير النسق.

بل إنه حتى في قوله: ﴿ ۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴿٥٣﴾﴾ التفتَ من المتكلم إلى الغيبة فقال: ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ ولم يقل: (لا تقنطوا من رحمتي إني أغفر الذنوب جميعاً، إنني أنا الغفور الرحيم). وقال في الآية التي هي مدارُ البحث: ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ . . . وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾، في حين قال في العنكبوت: ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ فبنى الكلامَ في الزمر على الغيبة، وبنى الكلام في العنكبوت على المتكلم وإظهار النفس.

إن سياق سورة العنكبوت مبنيٌّ على التكلُّم كما ذكرت، فقد قال: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴿٣﴾ ﴾ ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ﴿٤﴾ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

﴿ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾ ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا . . . ﴿١٤﴾ ﴾ ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ ﴾ إلخ .

ويستمر إلى أن يقول: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ ﴿٥١﴾ ﴾ ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ . . . ﴿٥٦﴾ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا . . . ﴿٥٨﴾ ﴾ ﴿ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ ﴿٦٦﴾ ﴾ ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا . . . ﴿٦٧﴾ ﴾ .

وختم السورة بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

فأنتَ ترى أنَّ جَوَّ السُّورة وسياقَ الآياتِ في الزُّمَر مبنيٌّ على الغيبة ، في حين أنَّ سياق العنكبوت مبنيٌّ على التكلُّم ، فناسبَ ذكر ضمير المتكلم وإبرازه في العنكبوت دون الزمر .

وقد تقول: ولِمَ قال في الزمر: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بذكر (قل) ولم يقل مثل ذلك في العنكبوت ، بل قال: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ من دون (قل)؟

والجواب: أنَّ سياقَ الآيات في الزمر مبني على التبليغِ ، بخلافِ ما في العنكبوت ، فإنه مبنيٌّ على ذِكْرِ النفس .

فقد أمر بالتبليغ بقوله: (قل) في الزمر أربع عشرة مرة فقال: ﴿ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ ﴿٨﴾ ﴾ و﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ و﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴿١٠﴾ ﴾ و ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ ﴿١١﴾ ﴾ و ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي ﴿١٣﴾ ﴾ و﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا ﴿١٤﴾ ﴾ و﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴿١٥﴾ ﴾ .

و﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ و﴿ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴿٣٨﴾ ﴾ و﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ ﴿٣٩﴾ ﴾ و﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴿٤٤﴾ ﴾ و﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴿٤٦﴾ ﴾ و﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴿٥٣﴾ ﴾ و﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

في حين لم يأمره بالتبليغ بقوله: (قل) في العنكبوت إلا ثلاثَ مراتٍ ، وهي قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴿٥٠﴾ ﴾ ، وقوله: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴿٥٢﴾ ﴾ و﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

فناسب ذكر القول في الزمر دون العنكبوت.

ومما حذف منه ضمير المتكلم قوله: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ فحذف الياء لأنهم قِلَّة. فإنه قيَّدَ العبادَ بالذين يستمعون القولَ فيتَّبعون أحسنَهُ.

فهم لم يكتفوا بالحسنِ، بل يَتَّبعونَ الأحسنَ، ولاشكَّ أنَّ هؤلاءِ قِلَّةٌ. ثم ذكر أنَّ هؤلاء هم الذين هداهم الله ، وأنهم أولو الألباب.

فحذف الياء لقلة المذكورين نسبياً.

هذا إضافة إلى فواصل الآي ، فإن هذه الآية تقع ضمن مجموعة من الآيات خواتمها تنتهي بنحو هذه الفاصلة وذلك نحو: ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ ﴾ ﴿ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾ وغيرها.

فحسن حذف الياء من كل وجهٍ ، والله أعلم.

ومن ذلك ذكر المد (الألف) في فواصل قسم من الآي ، وعدم ذكره في مواطِنَ أخرى ، وذلك بحسب ما يقتضيه المقامُ ، وذلك نحو قوله

تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأحزاب] بمدِّ (الرسول) و(السبيل) مع أنَّ القياس لا يقتضي المدَّ، وهو لم يمدَّ (السبيل) في أولِ السورة، وإنما قال: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾.

والفرقُ بينهما أنَّ آيتي المدِّ هما من قول أهلِ النار، وهم يصطرخونَ فيها ويَمُدُّونَ أصواتَهم بالبكاء، كما أخبر عنهم ربنا بقوله: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر]. فالمقامُ هنا مقامُ صراخٍ ومَدِّ صوتٍ فناسبَ المد.

في حين أنَّ الآيةَ الأخرى ليست كذلك، وإنما هي قولُ الله مُقَرِّراً حقيقة عقلية معلومة، قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحزاب]، فالمقامُ لا يقتضي المَدَّ ههنا بخلافِ ذاك.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب].

فمد (الظنون) وأطلقها، وذلك لأنهم ظَنُّوا ظنوناً كثيرةً مختلفةً فأطلقها في الصوت مناسبة لتَعَدُّدها وإطلاقها. ولو قال: (الظنون) لوقف على الساكن والسَّاكنُ مُقيَّد، فناسب إطلاقُ الألف إطلاقَ الظنون.

والمؤمنون ههنا في موقف ضيقٍ وخوفٍ شديدين وزَلْزلةٍ عظيمة، كما أخبر عنهم ربُّنا، فغزتهم الظُّنونُ وشرَّقوا وغرَّبوا فيها، فأطلق الصوت مناسبة لإطلاق الظنون وتعدُّدها. هذا علاوة على رعايةِ الفاصلة.

فإن قلت: ولِمَ لَمْ يقلْ: (وتظنون بالله ظنوناً) وهي مطلقةٌ أصلاً؟

قلنا: كان ذلك لأكثر من سبب. فإن هذا إطلاقه واجبٌ، فلا يفيدُ أنه أطلق الصوت لإطلاق الظنون ولا أنه أطلقه لنكتة. ثم إنَّ الظنون التي ظنَّها أصحابُ رسولِ الله ﷺ معلومة لهم معلومة لله سبحانه، فهي معارفُ لا نَكِرَات، فناسبَ ذلك التعريف والمدّ.

ومن ذلك ما جاء في سورة الإنسان: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإنسان].

فأطلقَ (قوارير) الأولى بالألف، وكان حقُّها ألا تُطلقَ لأنها ممنوعةٌ من الصرف.

ومن دواعي ذلك ـ والله أعلم ـ أنه أطلق الصوتَ فيها مناسبةً لإطلاق جنسها ونوعها، فهو لم يبينْ نوعَ القوارير ولا من أيِّ جنسٍ هي، فأطلقها لذلك، ولما قيَّدَ جنسها في الآية التي تليها فقال: ﴿قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾ لم يُطْلِقْها. هذا علاوة على رعاية الفاصلة، فزادها ذلك حُسْناً على حسن، والله أعلم.

* * *

الإبــدال

وقد يستعمل القرآن الكريم المفردة أحياناً مبدلةً وأحياناً غير مبدلة وذلك نحو (يَتذَكَّر) و(يَذَّكَّر) ، و(يَتدَبَّر) و(يَدَّبَّر) ، ونحو مكة وبكة ، وبسطة وبصطة ، فهل لهذا الإبدالِ غرضٌ؟

إنَّنا نرى أنَّ كلَّ تغيير في التعبير القرآني مهما كان فله سبُبه ، ولا يكون تغييرٌ من دون سَبَب . وسنذكر أمثلةً توضِّحُ هذا الأمر :

١ ـ قد ترد الكلمة في التعبير القرآني مُبدلةً مُدغمةً مرة ، ومرَّة أخرى ترِدُ غيرَ مبدلةٍ ، وذلك نحو قوله في آيات عِدَّةٍ : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ [البقرة] وفي آيات أخرى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف] .

ونحو قوله : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء] ، وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون] .

ونحو قوله : ﴿ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة] ، وقوله : ﴿ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التوبة] . فجمع بين قوله : ﴿ يَتَطَهَّرُوا۟ ﴾ وقوله : ﴿ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ .

إن أصل هذا الإبدال هو الفكُّ بالتاء ، فـ(ادَّبَّر) أصله (تَدَبَّر) فأُبدلتِ

التاءُ دالاً وأُدغمت في الدال ، فسكنت الدالُ الأولى وجيء بهمزة الوصل توصُّلاً إلى النُّطْق بالسَّاكن. وكذلك (ادَّكَرَ) أصله (تَذَكَّرَ) ، و(اطَّهَّرَ) أصله (تَطَهَّرَ).

والمضارع كالماضي ، فـ (يَدَّبَّر) أصله (يَتَدَبَّر) ، و(يَذَّكَّر) أصله (يَتَذَكَّر) ، و(يَطَّهَّر) أصله (يَتَطَهَّر) وهكذا. وهو من الإبدال الجائز لا الواجب ، ولذا نرى الاستعمالين معاً في اللغة ، وفي القرآن الكريم.

والمفسرون إذا أوردوا شيئاً من هذا أشاروا إلى أنه مُبدَلٌ ، واكْتَفَوْا بهذا على حدِّ ما أعلمُ.

أما ما يدور في الذهن عن سؤالٍ عن الفرق بينهما في الاستعمال القرآني ، فالجواب أنه لابُدَّ من أنْ يكونَ القرآنُ الكريمُ قد فَرَّقَ بينهما. فإن القرآنَ دقيقٌ غاية الدِّقَّةِ في الاستعمال، وهو لا يستعملُ لفظتينِ بمعنى واحد تماماً وإنْ كانتا مترادفتينِ أو مُبدلَتَيْنِ. وحتى إذا كانتا من لغتينِ فهو يخصُّ كلاًّ منهما بمعنى، وذلك كما خصَّ (العيون) بعيون الماء ولم يستعملها للباصرة ، وكما خصَّ (يشاقق) بمقام و(يشاقّ) بمقام[1] مع أنهما لغتانِ مختلفتانِ ، فخصَّ كلَّ لغةٍ بسياق.

ونعودُ إلى مسألتنا فنقول: إن هناك حقيقتينِ لغويتينِ لابُدَّ أنْ نذكرَهما في هذا الأمر:

الأولى: أنَّ بناء (يَتَفَعَّل) أطولُ من بناء (يَفَّعَّل) في النُّطْق. فـ (يَتَذَكَّر) أطول من (يَذَّكَّرُ) بمقطع واحد. فـ (يَتَذَكَّرُ) متكوِّنٌ من خمسة مقاطع:

(يَ + تَ + ذكْ + كَ + رُ) ، في حين أن (يذَّكَّرُ) متكوِّنٌ من أربعة مقاطع: (يَذْ + ذَكْ + كَ + رُ).

---

(١) انظر: التعبير القرآني ١٤.

والحقيقةُ الثانيةُ أنَّ بناء (يَفَّعَّل) فيه تضعيفٌ زائد على (يَتَفَعَّل) ، ففي (يَفَّعَّل) تضعيفانِ وفي (يَتَفَعَّل) تضعيفٌ واحد.

وهاتان الحقيقتان اللغويتان لهما شأنُهما في تفسير ما نحن بصدده. فما كان على وزن (يَتَفَعَّل) قد يُؤتى به في اللغة للدلالة على التَّدَرُّج ، أي الحدوث شيئاً فشيئاً ، وذلك نحو: تَخَطَّى وتمشَّى وتبصَّر وتجسَّس ، فهناك فرق بين (مشى) و(تَمَشَّى) ، و(خطا) و(تَخَطَّى) ، و(جَسَّ) و(تَجَسَّس)، ففي تَمَشَّى وتَخَطَّى من التَّدرُّج ما ليس في مَشَى وخَطا.

وقد يُؤتى بهذا الوزن للدلالة على التَّكَلُّف وبَذْل الجهد نحو: تَصَبَّرَ وتَحَلَّمَ ، أي: كلَّفَ نفسَه وحَمَلها على الصبر والحِلم. وفي كلا المعنيين دلالة على الطول في الوقت والتَّمهُّل في الحَدَث. وكذلك الأمر في القرآن الكريم. فإذا اجتمعت صيغتانِ من هذا البناء في اللغة (يتفعَّل) و(يَفَّعَّل) استعمل (يتفعَّل) لما هو أطولُ زمناً من (يفَّعَّل) وذلك لأن الفك أطول زمناً في النطق كما ذكرنا. فهو ملائم للطول في الحدث. ومثل هذا التناسب وجدناه في أمور عدة في اللغة، فهناك تناسب بين البناء والمعنى إلى حد كبير. ويكفي أن تعود في مثل هذا إلى باب (إمساس الألفاظ أشباه المعاني) في كتاب الخصائص[1] لابن جني ليتَّضِحَ لك هذا.

وما كان على وزن (يفَّعَّل) يأتي به القرآن فيما يحتاج إلى المبالغة في الحدث ، وذلك لأن التضعيف كثيراً ما يؤتى به للمبالغة نحو: فعل وفعَّل كـ (قطع) و(قطَّع) ، وكَسَرَ وكَسَّرَ ، ففي قَطَّعَ وكَسَّرَ من المبالغة ما ليس في قَطَعَ وكَسَرَ. ونحو: فُعَال وفُعَّال ، مثل: كُبَار وكُبَّار ، فـ(كُبّار) أبلغُ من (كُبَار) في الاتِّصاف بالحَدَث كما هو مقرَّرٌ في كتب اللغة ، فتكرار الحرف إشارةٌ إلى تكرار الحدَث.

---

(١) الخصائص ٢/ ١٥٢، وما بعدها.

جاء في (الخصائص): «ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلاً على تكرير الفعل ، فقالوا: كَسَّرَ وقَطَّعَ وفَتَّحَ وغلَّقَ»[١].

ومن ذلك في غير الأفعال نونا التوكيد الثقيلة والخفيفة ، فإن الثقيلة آكدُ من الخفيفة ، ونحو (إنّ) غير المخففة و(إنْ) المخفَّفة ، فغير المخفَّفة آكدُ من المخَفَّفة.

وهكذا يفرقُ القرآن الكريم بين الصِّيغتينِ.

وعلى هذا فإنه يستعمل بناء (يتفعّل) لما هو أطولُ زمناً ، وقد يستعملُه في مقام الإطالة والتفصيل.

ويستعمل (يَفَّعَّل) للمبالغة في الحَدَث والإكثار منه.

ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنعام] .

وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأعراف] .

فقال في آية الأنعام: (يَتَضَرَّعُونَ) ، وقال في الأعراف: (يَضَّرَّعُونَ) بالإبدال والإدغام. وذلك أنه قال في آية الأنعام: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ، وقال في الأعراف: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ ﴾ والأممُ أكثرُ من القرية، وهذا يعني تطاولَ الإرسال على مدار التاريخ. فلمّا طال الحَدَثُ واستمرَّ جاء بما هو أطولُ بناءً فقال: (يَتَضَرَّعُونَ). ولما كان الإرسالُ في الأعراف إلى قرية قال: (يَضَّرَّعونَ). فجاء بما هو أقصرُ في البناء.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه استعمل في آية الأنعام (أرسل

---

(١) الخصائص ٢/ ١٥٥.

إلى) فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾. واستعمل في الأعراف (أرسل في) فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾.

والإرسال إلى شخص ما يقتضي التبليغ ولا يقتضي المكثَ، فإنك قد ترسلُ إلى شخص رسالة فيبلغُها ويعودُ. وأما الإرسال في القرية أو في المدينة فإنه يقتضي التبليغَ والمكثَ، فإن (في) تفيدُ الظرفيةَ، وهذا يعني بقاءَ النبيِّ بينَهم يبلغُهم ويذكِّرُهم بالله ويُريهم آياتِهِ المؤيدةَ. ولا شكَّ أنَّ هذا يدعوهم إلى زيادة التَّضَرُّع والمبالغة فيه، فجاء بالصِّيغَةِ الدَّالَّة على المبالغة في الحَدَث والإكثار منه فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾. فوضع كلَّ مفردة في مكانها اللائق بها.

ونحو ذلك قوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ۙ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد].

فقال في آية يوسف: ﴿ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾، وقال في آية الأحزاب: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾، غير أنه قال في الحديد: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ بالإبدال والإدغام.

وقد ناسب كلٌّ تعبير موطنَـهُ.

ففي آية يوسف قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ ولم يقل: (المصَّدّقين) لأكثر من سبب:

منها: أنه مناسب لقوله: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾.

ومنها: أنهم طلبوا التَّصَدُّق عليهم ولم يطلبوا أن يبالغَ في الصدقة، وذلك من حسن أدبِهم.

ومنها أنه لو قال: (إن الله يجزي المصّدّقين) لأفاد بذلك أن الله يجزي المبالغينَ في الصَّدَقة دونَ مَنْ لم يبالغ. وهذا غيرُ مراد، فإن الله يجزي على القليل والكثير وهو يجزي المُتَصَدِّقَ والمُصَّدِّقَ، فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ يدخل فيه المُصَّدّقون، ولو قال: (يجزي المصّدّقين) لم يدخلِ المُقِلُّون في صدقاتِهم، والله أعلم.

وأما ما ورد في الأحزاب فقد جاء بها على الأصل من غير إدغام، وذلك للتفصيل في الصِّفات وتعدادِها والإطالة في ذكرها، فناسب الفكَّ وليشمل عمومَ أصحاب الصدقة.

وأما ما في آية الحديد فإنه ذكر المُبالغينَ في الصَّدقات، وذكر أنه يضاعفُ لهم، ولهم أجرٌ كريم. وكلٌّ اقتضى مكانَهُ. فإنه ذكر مَنْ بالغ في الصَّدقَة في سورة الحديد لأنه تكرر فيها ذكر الإنفاق والنهي عن البخل، فناسب ذكرُ المبالغة في الصَّدَقة.

فقد قال: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧﴾.

وقال: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ۝١٠﴾.

وقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ .

وقال: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ .

وقال: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ .

وقال: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ .

في حين لم يرد ذكر للإنفاق والصَّدَقات في سورة الأحزاب على طولها ، وهي ثلاث وسبعون آيةً عدا ما ورد في هذه الآية التي جمعت عدداً من صفات أهل الإيمان ، وقوله مخاطباً نساء النبي: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ .

فناسب ذكر المبالغين في الصدقات في الحديد دون الأحزاب ، والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء] .

وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد] .

في حين قال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون] .

فقال في الآيتين الأُولَيَيْن: ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿يَدَّبَّرُوا﴾ ذلك أن المقامَ في الآيتين الأُولَيَيْنِ يحتاجُ إلى طول التَّدَبُّر والتَّأمُّل، وأن المقامَ في الآية الأخرى يحتاجُ إلى عمق في التدبر ومبالغة فيه.

وأعني بطول التَّدَبُّر والتَّأمُّل: التَّدَبُّر العقلي الطويل الذي يُؤدِّي إلى القناعة العقلية عن طريق النظر في الحُجج والاستدلال العقلي.

وأعني بعمق التَّدَبُّر والمبالغة فيه: التَّدَبُّر القلبي الذي يحملُ الإنسان على الانتفاض للعمل بمقتضى ما يؤمنُ به العقلُ ويسلِّمُ بصحته ، فهو هِزَّةٌ إيمانيّة عنيفةٌ تنبعثُ من الأعماق تُصحِّحُ ما ينبغي تصحيحُه من اعتقاد أو سلوك.

وإليك إيضاحَ ذلك:

قال تعالى في آية النساء: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

فالنظر في القرآن وتخريج ما يبدو مختلفاً لأول وهلة يحتاجُ إلى طول تدبُّر وتأمُّل. فطول التأمّل والنظر ههنا مُتَأتٍّ من ناحيتين:

١ ـ من ناحية أن النظر شامل للقرآن كلِّه على وجه العموم ، وليس في قسم منه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ ﴾.

٢ ـ من ناحية النظر في عدم الاختلاف بين آياته وتخريج ما يبدو مختلفاً.

فجاء لذلك بلفظ (يَتَدَبَّر).

فهذا يرادُ به التدبُّرُ العقلي والنظر الاستدلالي ، والله أعلم.

وقال في آية (محمد): ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ وهذا يحتاجُ إلى طول تَدَبُّر ونظر أيضاً ، وذلك أنَّ قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فهم مصابون بالصَّمَم والعمى ، وعلاوة على ذلك أن قلوبهم مقفلةٌ: ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ والمصابُ بالصَّمَم والعمى محتاجٌ إلى تَكرار التذكير وتطاوله للوصول إلى الإدراك الصحيح والفهم السليم . كما أن القلوبَ المقفلةَ تحتاجُ إلى طَرْقٍ كثير وإلى تَكرارِ محاولات الفتح لتفتحَ.

فهذه الأوصاف تستدعي طولَ التَّدَبُّر والنظر.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فجعل القرآنَ كُلّه موضوعاً للتَّدبُّر وليس قسماً منه، فزاد ذلك في وقت التَّدَبُّر وأمده.

فطول التَّدَبُّر متأتٍّ من ناحيتين أيضاً:

١ ـ من ناحية الأوصاف التي تستبعد الفهم.

٢ ـ من ناحية كثرة المتدبَّر وطوله، وهو القرآن الكريم كلُّه.

ثم إن التدبر ههنا عملٌ عقليٌّ كما يبدو، فقد ذكر أن السبل التي توصل العقل إلى الحكم الصحيح معطّلة. فالسمع معطّلٌ، والبصر معطّلٌ، والقلوب مقفلةٌ، فكيف يصل العقل إلى الحكم السليم؟

في حين قال في آية أخرى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون].

ولم يقل: (يَتَدَّبَّروا)، وذلك أنه آخَذَهم على عدم مضاعفة التَّدبُّر، وعدم المبالغة فيه من ناحية، وآخذهم من ناحية أخرى على عدم إعمال قلوبهم في التَّدَبُّر. فهم محتاجون إلى تَدَبُّرٍ يُوقِظُ قلوبَهم ويحيي مواتَها.

والدليل على أن التَّدَبُّر هنا عملٌ قلبي لا عمل عقلي أن هؤلاء كما أخبر الله عنهم يعرفون رسولَهم ولا يُنكِرونه: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

وذكر أن هؤلاء كارهونَ للحق وأنهم لا يعملونَ بمقتضاه وإن عرفوه ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ وأنهم متَّبِعُونَ للهوى لا لحكم العقل والمنطق، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴿٧١﴾﴾.

فهم إذن لا يحتاجونَ إلى طول تَدَبُّر للوصول إلى معرفة الحق ، فهم يعرفون الحق ويعرفونَ رسولَهم غير أنهم كارهون للحق مُتَّبِعُون للهوى. فهم محتاجون إلى ما يَشفي قلوبَهم من كراهِيَة الحق واتِّباع الهوى. فاقتضى هنا التدبر القلبي لا العقلي.

هذا علاوة على أنه قال: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ ولم يقل: (أفلم يَدَّبَّروا القرآن) كما قال في الآيتين الأخريين. والقول قد يشملُ الآية والآيتين منه ، فدعاهم إلى تَدَبُّرِ القول. وهذا يتطلب وقتاً أقصرَ من تدبُّر عموم القرآن ، فلما قصَّر من المتدبَّر قصَّر من التَّدبُّر. ولما أطال في الآيتين الأخريينِ ، فجعله القرآن كله أطال البناء. والله أعلم.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ [الليل] .

قوله: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ [عبس] .

فقال في الآية الأولى: ﴿ يَتَزَكَّىٰٓ﴾ ، وقال في الآية الثانية: ﴿ يَزَّكَّىٰٓ﴾ بالإبدال والإدغام.

ذلك أن الآية الأولى في إيتاء المال، وهو مستمرٌّ متطاولٌ مدى العُمُرِ، فجاء بالصِّيغة الطويلة للدلالة على الطول في الزمن. في حين أن الثانية في الأعمى الذي جاء يسأل رسول الله ﷺ، فأعرض عنه، فعاتبه الله على ذلك بقوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ ولا شك أن مدَّةَ هذا الفعل أقصرُ من مدة إيتاء المال ، ذلك لأنه جاء يستفهمُ أو يسترشدُ في وقت من الأوقات ، فيزكي قلبَهُ بذاك.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن التَّزَكِّيَ الأوَّلَ مقرونٌ بإيتاء المال ، وأن التَّزَكِّيَ الثاني مقرونٌ بالخشية وطلب الذكر النافع: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ والخشيةُ أمر قلبي.

فاستعمل (يَتزكَّى) لِمَا هو طويل الأمد ودالٌّ على الـتَّـدَرُّج ولِمَا اقترن بإيتاء المال ، واستعمل (يَزَّكَّى) لما هو عملٌ قلبيٌّ مقرونٌ بالخشية والسعي إلى الذكر. وهو نظير ما ذكرناه في: يَتدَبَّر ويَدَّبَّر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة] .

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التوبة] .

فقال في آية البقرة: ﴿ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾، وقال في آية التوبة: ﴿ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ ذلك أن الآية الأولى في الطهر من الحيض والتطهُّر منه ، وهو متكرِّرٌ متطاول في العُمُر ، فجاء به على صيغة الفك لأنها أطول.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن التَّطَهُّرَ في الأولى أمرٌ بَدَنِيٌّ بالنسبة إلى النساء والرجال. فالنساء ينبغي أن يتطهَّرْن من الحيض والرجال ينبغي أن يعتزلوا النساءَ حتى يَتَطهَّرْنَ.

وأما الآية الثانية فالتَّطَهُّرُ فيها منظورٌ إلى التطهر القلبي أولاً ، ذلك لأنها نزلت في المنافقين الذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، وهذا من فساد الباطل وسوء السريرة ودَنَس القلب ، وقد قال الله فيهم وفي أضرابِهم من المنافقين: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة] . فأمر الله رسولَه بترك هذا المسجد وعدم القيام فيه وطلب منه القيام فيما أُسِّسَ على التَّقوى. ثم

ذكر بإزاء أولئك المنافقين أصحاب القلوب الدَّنِسة رجالاً آخرين ، وهم أصحابُ القلوب الطاهرة المنيبة إلى ربها ، فقال فيهم: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ ومعناه: أنَّه يحبُّ الذين يُبالغون في التَّطَهُّر.

فاستعمل التَّطَهُّرَ في الآية الأولى ـ أعني آية البقرة ـ للبدن واستعمله في الآية الثانية للقلب وهو أبلغُ.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن الآية الأولى في عموم المؤمنين والمؤمنات إلى يوم الدِّين ، وأن الثانية في صحابة رسول الله ﷺ.

فاستعمل الأبلغ للصحابة ، لأنهم أكملُ الناس طهارةَ ظاهرٍ وباطن. واستعمل الصيغة الطويلة في المدَّة المتطاولة.

وهذا نظير ما مر من قوله: يَتزَكَّى ويَزَّكَّى ، ويَتَدَبَّر ويَدَّبَّر.

وقد تقول: ولكنه قال: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ فجاء بالفك ، ولم يقل: (يَطَّهَّروا).

ونقول: إن الله جمع لهم بينَ التَّطَهُّرين: التَّطَهُّر في القلب ، والتَّطَهُّر في البَدَن ، وذلك أبلغُ وأمدح من أن يذكرَهما بنوعٍ واحد. فإنه يُحِبُّ المُتَطَهِّرين جميعاً.

ونحو ذلك ما استعمله القرآنُ الكريم في (يَتَذَكَّر) و(يَذَّكَّر) فاستعمل (يَتذكَّر) للتَّذَكُّر العقلي ولِمَا كان يحتاجُ إلى طول وقت.

واستعمل (يَذَّكَّر) لما كان فيه هزَّةٌ للقلب وإيقاظٌ له ، ولما كان فيه مبالغة وقوة في التَّذَكُّر ، فقال مثلاً: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النازعات] . وهذا تذكُّرٌ عقلي لِمَا عَمِلَهُ الإنسانُ في حياته. وما عمله يستغرقُ عُمُرَه كلَّه ، فهو تَذكُّرٌ يستغرقُ وقتاً طويلاً ،

لأنه تذكُّرٌ لما سعاه في حياتِه. وهو تَذَكُّرٌ عقليٌّ وليس تذكُّراً قلبياً يدفعُه إلى أن يعملَ شيئاً آخَرَ ينفعُهُ.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذِۭ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفجر].

وهذه الآية نظيرة الآية السابقة، فاستعمل (يتذكَّر) فيها أيضاً.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر].

أي: بقيتم في الدنيا مدة طويلة فيها كفايةٌ للتَّذَكُّر، ولكنكم لم تَتَذكَّروا.

وقال: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد].

وهو تذكُّرٌ يقومُ على المحاكمة العقلية. والمقصود بالآية: أفمن يعلم كمن لا يعلم؟

ونحوه قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر].

وهذه الآية نظيرة الآية السابقة في المفاضلة بين الذي يعلمُ والذي لا يعلمُ وهو أمر عقلي، فجاء بـ (يَتَذَكَّر) أيضاً، والعلمُ يحتاجُ إلى النظر الطويل والتَّدَرُّج في المعرفة.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم].

والخلوص من المَثَل إلى موطن الحكمة والاتِّعاظ ، وعقدُ الصلة بين المثل والواقع ، كلُّ ذلك يحتاجُ إلى طول تذكُّر وتأمُّل ومحاكمة عقلية ، فاستعمل : (يتذكرون) له .

ونحو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر] .

وهو نظير الآية السابقة ، إذ إن فيه من المَثَل المضروب ما يحتاجُ إلى محاكمة عقلية وطول نظر ، ولذا عقب بعد ضرب المَثَل بقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فنفى العلم عن أكثرهم .

والوصول إلى العلم أمرٌ عقليٌّ يكونُ بالتعلُّم والنظر . وهو نظير آيات العلم السابقة ، فاستعمل (يَتَذكَّرونَ) كما استعمله في الآيات السابقة .

غير أنه قال : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنفال] .

وهؤلاء مرضى قلوب ، يعاهدون ثم ينقضونَ عهدهَم في كل مّرة ، فهم يحتاجون إلى هزَّة قلبية عنيفة ، وإلى سوط يقرعهم ، وإلى عمل يذكِّرهُم ويبالغُ في تذكيرهم ليرتدعوا ، فالمطلوب تذكر قلبي يُرْهِبُهم ويُرْعِبُهم . إن هؤلاء لم ينتفعوا بالعقل ، فإنهم أبطلوا عقولَهم ، ألا ترى أنه سماهم دَوَابَّ ، بل سمَّاهم شرَّ الدَّوَابِّ؟

فاستعمل (يَذَّكَّرونَ) الدالّ على المبالغة في التذكُّر والعمق فيه .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ

هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة] .

وهذه الآية نظيرة الآية السابقة ، فهي في مَرْضى القلوبِ ، ألا ترى أنه قال : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ . وذكر أن الآيات المنزلة تزيدُهم رجساً إلى رجسهم ، فهم محتاجون إلى يَقَظةٍ قلبية وهزةٍ نفسيّة شديدة ، وتذكُّرٍ قلبي عميق يوقظهم . فاستعمل (يذَّكَّرُونَ) لذلك .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الإسراء] .

وهذه الآية نظير آية التوبة السابقة ، ألا ترى أنه ذكر أن القرآن ما يزيدهم إلا نفوراً كما يزيد أولئك رجساً إلى رجسهم؟

وهذا أمر قلبي أيضاً ، فهم محتاجون إلىَ تذكُّر قلبي يوقظهم ، فاستعمل (يَذَّكَّرُوا) كما استعمله فيما مرَّ .

وقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران] .

لقد ذكر في هذه الآية أناساً في قلوبهم زيغٌ ، يبتغون الفتنة ولا يُريدونَ الوصولَ إلى الحق ، وهؤلاء نظير أولئك من مرضى القلوب ، فهم محتاجون إلى يَقَظةٍ قلبية وإلى شفاء يشفي قلوبهم مما ألمَّ بها من داء . وإن حاجَتَهم إلى إصلاح قلوبهم أكثرُ من حاجتهم إلى إصلاح عقولهم .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [يس] .

وقوله: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل] .

فقال في (يس): (تَطَيَّرْنا) ، وقال في النمل: (اطَّيَّرْنا) ، ذلك أنَّ التَّطيُّرَ في (النمل) أشدُّ مما في (يس) بدليل أنهم قالوا في (يس): ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ ، فهددوهم بالرَّجم والتَّعذيب.

أما في النمل فقد أقسموا وتعاهدوا على قتله وقتل أهله. ومعنى ذلك أن التَّطَيُّر بلغ عندَهم درجةً أكبرَ وأشدَّ مما في (يس) فجاء بما فيه زيادة مبالغة.

ومن الإبدال قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس] .

وأصل ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ يختصمون فأبدلت التاءُ صاداً ، وأدغمتْ في الصاد فصار (يَخِصِّمُون). والتضعيفُ يفيدُ القُوَّةَ والتكثيرَ والمبالغةَ كما ذكرنا. فأفاد ههنا المبالغة في الاختصام.

والمعنى أن الساعة تأخذهم وهُم منهمكونَ في معاملاتهم منشغلونَ في خصومات الدنيا على أكثرِ ما يكون وأشدِّ ما يكونُ غيرَ منشغلين بشيء آخَرَ عن الدنيا ، فالساعة لا تقوم على رجل يقول: لا إله إلا الله. وفي الحديث: «شرارُ الخَلْق الذين تدركُهم الساعةُ وهم أحياءٌ» فتصيحُ الساعةُ

صيحةً تقطعُ الاختصامَ، فلا يكونُ نبس ولا حركة ولا خصومة ولا كلام ، بل صمت مطبق وسكون مطلق ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾. فعبر عن ذلك بقوله: ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ ولا يَدُلُّ الأصل (يختصمونَ) على هذه المبالغة والقوة.

جاء في «البحر المحيط» في هذه الآية: «وهذه هي النفخة الأولى تأخذهُم ، فيهلكون وهم يتخاصمونَ في معاملاتهم وأسواقهم في أماكنهم من غير إمهال لتوصيةٍ ولا رجوع إلى أهل. وفي الحديث: «تقوم الساعةُ والرجلانِ قد نشرا ثوبَهما يتبايعانه ، فما يطويانِه حتى تقومَ ، والرجلُ يخفضُ ميزانَهُ ويرفعُهُ ، والرجلُ يرفعُ أكْلَتَهُ إلى فِيهِ ، فما تصلُ إلى فيه حتى تقومَ»[1].

في حين قال: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزمر] من غير إبدال. ذلك أن الاختصام أمامَ ربِّ العالمين لا يكونُ مثلَ الاختصام في الدنيا. فالاختصامُ في الدنيا عام يشملُ المخاصماتِ التي تستدعي القضاءَ والفصلَ بينَ المتخاصمين ، كما يشملُ غيرَها ، مما لا يستدعي قضاءً ولا فصلاً.

أما الاختصامُ عندَ الرَّبِّ فهو مما يستدعي القضاءَ والفصلَ. فبالغ في البناء فيما استعمله في الدنيا، بخلاف ما استعمله في الآخرة، والله أعلم.

٢ ـ وقد يستعملُ كلمةً في موطِن ، ثم يستعملُها في موطِن آخَرَ مبدلاً فيها حرف ، وذلك نحو: مَكَّة وبَكَّة ، واللَّاتي واللَّائي ، وبصطة وبسطة ونحوها. وكلُّ ذلك لِغَرَض.

فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٤٠.

لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح].

فقال في آية آل عمران: (بَكَّة)، وقال في الفتح: (مَكَّة) «وسبب إيرادها بالباء في آل عمران أن الآية في سياق الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ فجاء بالاسم (بَكَّة) في لفظ (البَكِّ) الدَّالِّ على الزِّحام لأنه في الحجّ يبكُّ الناسُ بعضهم بعضاً، أي: يزحَم بعضُهم بعضاً، وسميت (بكة) لأنهم يزدحمون فيها»[1].

وليس السياق كذلك في آية الفتح فجاء بالاسم المشهور لها ـ أعني (مكة) بالميم ـ فوضع كل لفظ في السياق الذي يقتضيه، والله أعلم»[2].

ومن ذلك استعمال اللاتي واللائي.

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ ﴿٢﴾﴾ [المجادلة].

وقال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ ﴿٤﴾﴾ [الطلاق].

فقال في كل ذلك: (اللائي) بالهمز.

---

(١) انظر: مفردات الراغب ٥٧.

(٢) التعبير القرآني ١٧٦.

في حين قال: ﴿ وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [النساء].

وقال: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النساء].

وقال: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف]. وغيرها.

ومن الملاحظ في استعمال هاتين الكلمتين أنه استعمل (اللائي) بالهمزة في حالتي الظهار والطَّلاق، ولم يستعملْها في غيرهما، وكأن ذلك لثقل الهمزة. فاستعمل الهمزة لثقلها للحالات الثقيلة النادرة، وهي حالات المفارقة.

ومن الطريف أن بناءَ (اللائي) وجَرْسَها يُوحي بذلك، فكأنها مشتقَّةٌ من: اللَّأْي، وهو الإبطاءُ والاحتباسُ والجَهْد والمشقَّة والشِّدَّة.

والمُظَاهِرُ والمُطَلِّقُ محتبسٌ عن امرأتِه مبطىءٌ عنها، وفي ذلك ما فيه من الجَهْد والمشقَّة والشِّدَّة للطَّرَفين. فانظر حسنَ المناسبة في اللفظ والمعنى والاستعمال.

ومن ذلك إبدال السين صاداً في لفظتي: (بصطة) و(يبصط).

أما كلمة (بصطة) بالصاد فقد وردت في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴿٦٩﴾ ﴾. ووردت في سورة البقرة بالسين، وهو قوله تعالى: ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ [البقرة]. وذلك

لأمر معنوي ، وهو أنها وردت بالسين في وصف طالوت: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ﴿٢٤٧﴾﴾ .

ووردت بالصاد في وصف قبيلة عاد قوم هود. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف] .

وطالوتُ إنما هو شخصٌ واحد ، وأما عادٌ فهي قبيلة. ومن المعلوم أن الصاد أقوى من السين وأظهر[1] ، فكان السين الذي هو أضعفُ أَلْيَق بالشخص الواحد ، والصاد الذي هو أقوى وأظهرُ ألْيَق بالقبيلة.

وأما كلمة (يبصط) بالصاد فقد وردت في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة] . وسائر ما في القرآن (يبسط) بالسين في أكثر من عشرة مواضِعَ ، وذلك أن البسط في آية البقرة مطلقٌ عامٌّ لا يخصُّ شيئاً دونَ شيء ، وفي غيرها مُقَيَّدٌ ، ولا شكَّ أن البسطَ المطلَقَ أقوى من المُقَيَّدِ، فهو يحتملُ البسطَ في الرِّزق وفي الأنفس وفي الملك وغيرها، فجاء في الأقوى بالصَّاد وفي المقيَّد بالسين.

جاء في «البرهان» «فصل في حروف متقاربة تختلف في اللفظ لاختلاف المعنى. مثل: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ﴿٢٤٧﴾﴾ ، و﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ﴿٦٩﴾﴾ ، و﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴿٢٦﴾﴾ ، ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ﴿٢٤٥﴾﴾ ، فبالسين السعة الجزئية كذلك علة التقييد ، وبالصاد السَّعة الكلِّيَّة بدليل علوِّ معنى الإطلاق ، وعلو الصاد مع الجهارة والإطباق»[2] .

---

(١) الخصائص ٢/ ١٦١ .

(٢) البرهان ١/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠ .

وجاء في «البحر المحيط»: في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُۖ﴾: «أي: يسلُبُ قوماً ويعطي قوماً، أو يقترُ ويوسعُ. قاله الحسن. أو يقبضُ الصدقات ويخلفُ البذلَ مبسوطاً، أو يقبضُ أي: يُميتُ، لأن من أماته فقد قبضه، ويبسطُ، أي: يُحييه، لأن مَنْ مدَّ له في عُمُره فقد بسطه، أو يقبضُ بعض القلوب فلا تنبسط ويبسط بعضَها فيقدم خيراً لنفسه، أو يقبضُ بتعجيل الأجَلِ ويبسطُ بطولِ الأمل، أو يقبضُ بالحظر ويبسطُ بالإباحة، أو يقبضُ الصَّدْرَ ويوسعُه، أو يقبض يَدَ من يشاءُ بالإنفاق في سبيلِه، ويبسط يَدَ من يشاءُ بالإنفاق... أو يقبضُ الصدقة، ويبسطُ الثواب»[١]. وغير ذلك.

وجاء في «فتح القدير»: «هذا عام في كل شيء، فهو القابض الباسط، والقبض: التقتير، والبسط: التوسيع»[٢].

وقيل: يقبض الصدقة ويخلفها، وقيل: يبسطُ عليك وأنت ثقيلٌ عن الخروج لا تريدُه، ويقبضُ عن هذا وهو يطِيبُ نفساً بالخروج ويخفُّ له[٣].

فأنت ترى مقدار الإطلاق في القبض والبسط ههنا، بخلاف ما ورد في الآيات الأخرى، فإنه مُقَيَّدٌ بالرزق في عشرةِ مواضعَ ومقيَّدٌ بغيره في مواضِعَ أخرى.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ ٢٦﴾ [الرعد].

وقال: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ ٦٢﴾ [العنكبوت].

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٢٥٣.
(٢) فتح القدير ١/ ٢٣٤.
(٣) انظر فتح القدير ١/ ٢٣٥.

وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإسراء] .

وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الروم] .

وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الروم] .

فالبسط في غير آية البقرة مقيَّدٌ كما ترى، فجاء للمقيَّد بالسين ، وللمطلق الذي هو أقوى وأعمُّ بالصاد.

ومن ذلك إبدال الواو ياء والضمة كسرة كما في (عُتُوّ) و(عِتِيّ) ، فقد استعمل مرة (عُتُو) ومرة (عِتِيّ) وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ [مريم] .

وقوله: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الفرقان] .

فاستعمل (عِتِيّ) في مريم و(عُتوّ) في الفرقان وهما مصدران للفعل (عتا يعتو) والكثير (عُتُوّ). وقد ترى أن ذلك للفاصلة في مريم ، إذ إن (عِتِيّاً) أنسبُ مع فواصل مريم. غير أن هذا الاختيارَ له دلالةٌ أخرى ، وذلك أن الواو كما هو مقرَّرٌ أثقلُ وأقوى من الياء ، وأن الضمةَ أثقلُ وأقوى من الكسرة لما فيهما من الجَهْد العضلي. وعلى هذا فـ(عُتُوّ) أثقل من (عِتِيّ) وأقوى.

ومن النصين القرآنيين نلاحظ أن اتصاف المذكورين بالعتوّ في الفرقان أشد مما في مريم ، فاختار لهم اللفظ الأثقل والأقوى ، وذلك:

١ ـ أنه ذكر أنهم لا يرجونَ لقاءَ الله ، أي: هم ممن يكفرونَ باليوم الآخر.

٢ ـ أنهم طلبوا ليؤمنوا إنزالَ الملائكة عليهم ، وهم لم يكتفوا بمَلَكٍ

واحد ، فهم أشدُّ كفراً ممن قال الله فيهم: إنهم قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان] .

فهم يريدون إنزالَ ملائكةٍ لا مَلَكٍ واحد. وإن الإنزال يكون عليهم لا إليه كما طلب الآخرون.

٣ ـ فإن لم تنزل عليهم الملائكة فينبغي أن يروا ربهم ليُصَدِّقوا بالرسول وإلا فلن يُصَدِّقوا.

٤ ـ ذكر أنهم استكبروا في أنفسهم ، أي: رأَوْا أنفسهم كبيرة.

٥ ـ وذكر أنهم عَتَوا عُتُوّاً كبيراً. فأكد الفعل بالمصدر ووصفه بالكبر. في حين قال في آية مريم: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ والمذكورون في الفرقان هم من هؤلاء المذكورين في مريم بل من أشدهم.

٦ ـ ذكر في مريم أنه لينزعن من كان أشد على الرحمن عِتيّاً ، فخصَّ العُتُوّ على الرحمن ، في حين أطلق العُتُوَّ في الفرقان ولم يقيده بشيء ، فهم عتاةٌ على الرحمن وعلى خَلْقِه.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن العُتُوَّ على الله لا ينال منه شيئاً ، بخلاف العتو على البشر. إذ ما قيمة العُـتُـوِّ على الله؟ وما أَثَره عليه؟

إنه تجبُّرٌ مضحكٌ. لذلك جعل أخف العتوّين ما كان خاصًّا وأثقلهما ما كان عامّاً.

وهذا نظير ما مر في بصطة وبسطة. والله أعلم.

* * *

فعَّل وأَفعل بمعنى

قد يرِدُ في القرآن الكريم فَعَّلَ وأَفْعَلَ بمعنًى واحد ، أو كأنهما بمعنى واحد مثل: نَجَّى وأَنْجَى ، ونبَّأَ وأَنْبَأَ ، وَنزَّلَ وأَنْزَلَ ، ونحن نحاولُ أن نتلمسَ الفرقَ بينهما في الاستعمال القرآني .

إن (فَعّلَ) يفيدُ التكثير والمبالغة[1] غالباً نحو: قَطَّعَ وفتَّحَ وكَسَّرَ وحَرَّقَ وسَعَّرَ ، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء] . فقال في الينبوع (تَفْجُر) بالتخفيف ، وقال في الأنهار (تُفَجِّر) بالتضعيف للكثرة، وقد يخرجُ هذا المثال ـ أعني مثالَ فَعَّلَ ـ عن التكثير إلى معانٍ أخرى كالتعدية نحو فَرَّحْتُه، والنسبة إلى أصل الفعل نحو: فَسَّقَهُ وكَفَّرَهُ، أي: نسبة إلى الفسق والكفر، وغير ذلك من المعاني[2] .

ومن مقتضيات التكثير في الحَدَث استغراقُ وقتٍ أطولَ وأنه يفيد تَلَبُّثاً ومُكثاً. فـ (قَطَّعَ) يفيدُ استغراقَ وقتٍ أطولَ من (قَطَع) ، و(فَتَّحَ) يفيدُ استغراق وقت أطول من (فَتَحَ). وفي (عَلَّمَ) من التَّلَبُّث وطول الوقت في التعلُّم ما ليس في (أَعْلَمَ). تقول: (أعلمتُ محمداً خالداً مسافراً) ،

---

(١) انظر: مفردات الراغب ٤٨١ (نبأ)، بصائر ذوي التمييز ١/ ٢١٢ (نجّى)، ١/ ٤٣١ (نزل).

(٢) انظر: شرح الرضي على الشافية ١/ ٩٢، وما بعدها.

وتقول: (علَّمْتُهُ الحسابَ) ولا تقول: (أعلمتُه الحسابَ). وكذلك عَوَّدَ وقَوَّمَ، فإن في (قَوَّم) من المبالغة في التقويم ما ليس في (أقام)، فإن إقامة الجدار مثلاً لا يقتضي مبالغةً وتَلَبُّثاً كتقويمه، قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف]. ولم يقل: فَقَوَّمَهُ، فإنه أراد أن يحفظه من الهدم بإقامتِه وليس قصدُه التسويةَ والتقويم.

ومن الاستعمال القرآني لفَعَّلَ وأفعَلَ نحو: (كَرَّمَ وأَكْرَمَ)، فإنه يستعمل (كَرَّمَ) لما هو أبلغُ وأدومُ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء]. وهذا تكريمٌ لبني آدَمَ على وجه العموم والدوام، وقوله على لسان إبليس في: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء]. أي: فضَّلته عَلَيَّ.

في حين قال: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر]، وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ [الفجر]، وهو يقصد إكرامَه بالمال.

فاستعمل التكريم لما هو أبلغُ وأدومُ وأعمُّ.

وكاستعمال (أَوْصَى) و(وَصَّى)، فهو يستعمل (وصَّى) لما هو أهمُّ لما فيه من المبالغة، فهو يستعمل (وصَّى) للأمور المعنوية ولأمور الدين، ويستعمل (أَوْصَى) للأمور المادِّية، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام].

في حين قال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴿١١﴾﴾ [النساء]. ولم يستعمل (أوصى) في الأمور المعنوية وأمور الدين إلا في قوله تعالى: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم]، وذلك لاقتران الصلاة بالزكاة.

ومنه استعمال (نَزَّلَ وأَنزَلَ) ، فقد ذهب جماعةٌ إلى أن (نَزَّلَ) يفيدُ التَّدَرُّجَ والتَّكرارَ وأن الإنزال عامٌّ. وقيل: إن ذلك هو الأكثرُ وليس نصّاً في أحد المعنيينِ ، قيل: «ولذلك سُمِّيَ الكتابُ تنزيلاً لأنه لم يُنَزَّل جملةً واحدةً بل سورة سورة وآية آية. وليس نصّاً فيه. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢] ، وقوله: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً ﴾ [الشعراء: ٤]»[1] .

وجاء في «ملاك التأويل» في قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران: ٣]: «إن لفظ (نَزَّلَ) يقتضي التَّكرار لأجل التضعيف. تقول: (ضَرَبَ) مخففاً لمن وقع منه ذلك مرة واحدة ، ويحتمل الزيادة. والتقليل أنسبُ وأقوى. أما إذا قلنا: (ضَرَّبَ) بتشديد الراء فلا يقالُ إلا لمن كَثُرَ ذلك منه. فقوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يشير إلى تفصيل المُنَزَّل وتنجيمه بحسب الدواعي ، وأنه لم ينزل دفعة واحدة. أما لفظ (أَنْزَلَ) فلا يعطي ذلك إعطاءَ (نَزَّلَ) وإن كان محتملاً. وكذلك جرى أحوال هذه الكتب. فإن التوراة إنما أوتيها موسى عليه السلام جملة واحدةً في وقت واحد. . . أما الكتابُ العزيز فنزل مُقسَّطاً من لدن ابتداء الوحي. . . وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ [النساء: ١٣٦]. وهو القرآن ، ثم قال: ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ والمراد التوراة»[2] .

والذي يبدو أن استعمال (نَزَّلَ) قد يكون للتَّدَرُّج والتَّكثير ، وقد يكون

---

(١) شرح الرضي على الشافية ١/ ٩٣ .

(٢) ملاك التأويل ١/ ١٤١ ـ ١٤٢ .

للاهتمام والمبالغة ، كما في أَوْصَى ووَصَّى ، فالتنزيلُ قد يستعملُ فيما هو أهمُّ وأبلغُ من الإنزال.

وقد تقول: وكيف يكون اللفظُ الواحدُ لأكثرَ من معنى؟

فنقول: هذا كثير في اللغة ، ومن ذلك على سبيل المثال: (كَفَّرَ يُكَفِّرُ) فقد يكون (كَفَّرَهُ) بمعنى: نسبه إلى الكفر، أي قال: هذا كافر، وقد يكون بمعنى: (جعله يَكْفرُ) ، ومنه قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: «لا تَضْرِبوا المسلمين فَتُذِلُّوهم ، ولا تمنعوهم حقَّهم فتُكفِّرُوهم لأنهم ربما ارتدُّوا إذا مُنِعوا من الحقِّ»[١].

ومنه (ضَعَّفه) ، فقد يكون بمعنى: صَيَّرَه ضعيفاً ، وبمعنى: نسبه إلى الضعف[٢].

ومنه (زكَّى) ، فقد يكون بمعنى: نسب الشيءَ إلى الزَّكاء ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم] . أي: لا تنسبوها إلى زكاء الأعمال والطَّهارة عن المعاصي ولا تُثنوا عليها[٣].

وقد يكون بمعنى: (طَهَّر) ، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس] . أي: مَنْ طَهَّرها. وعلى هذا يصحُّ أن تقولَ: (زكُّوا أنفسكم ولا تُزَكُّوها) ، أي: طَهِّروا أنفسَكم ولا تمدحوها وتُثْنُوا عليها بزكاء الأعمال ، فإنه لا يُزَكِّي الأنفسَ إلا الله.

ومنه (اسْتَحَلَّ الشيءَ) ، فقد يكون بمعنى: عَدَّهُ حلالاً ، وبمعنى: سأله أن يُحِلَّهُ[٤].

---

(١) انظر: لسان العرب (كفر).

(٢) لسان العرب (ضعف).

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٦٥.

(٤) لسان العرب (حلل).

ومنه (استقام)، فقد يكون بمعنى: اعتدلَ واستوى، وقد يكون بمعنى قَوَّمَ، ومنه (استقامَ المتاع) أي: قومه[١]. وغير ذلك.

فـ (نَزَّلَ) يمكن أن يستعملَ لأكثرَ من معنى. فإن هذا الفعل قد يكونُ للتَّدرُّج والتَّكثير كما ذكرت، وقد يكونُ للمبالغة والاهتمام. فما استعمل فيه (نَزَّلَ) يكون أهمَّ وآكَدَ مما استعمل فيه (أَنْزَلَ).

ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف]، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم].

وبالنظر في سياق هذه الآيات يتضح الفرق.

إن ما ورد في سورة الأعراف من المجادلة والمحاورة والتحدي أشدُّ من الموطنينِ الآخرينِ.

فقد قال في سورة الأعراف:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

في حين لم يكنِ الأمرُ في قصة يوسُفَ كذلك، وإنما هو عرضٌ لعقيدته عليه السلام، قبل أن يُؤَوِّلَ الرؤيا للفتَيَيْن، فقد قال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ

(١) لسان العرب (قوم).

أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ ثم أوَّل لهما الرُّؤيا.

وكذلك في سورة النجم، فإنه لم تكن المجادلةُ بتلك الشِّدَّة، ولا بذلك التَّحدي، قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾. وانتهت المجادلة.

فلم يذكر ردّاً من جانب الكَفَرة في الموطنين، بخلاف ما في الأعراف الذي انتهى المشهد فيه بتدمير الكافرين وقطع دابرهم ونجاة المؤمنين.

فهم ردوا على نبيهم بقولهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ﴾. وتحدَّوه بقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وهو ردّ عليهم بقوله: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ...﴾.

فما في الأعراف أشدُّ كما هو ظاهر، فجاء بـ(نزَّلَ) المضاعف لذلك.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت].

فقد قال في الأنعام: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ ﴾، وقال في العنكبوت: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ ﴾.

والذي يظهر من السياق أن الموقفَ في الأنعام أشدُّ، وأن موقِفَ الكافرين أعنتُ، فقد قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ . . . وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ . . . قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ . . . وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ . . . ﴿٣٧﴾ ﴾ الآية [الأنعام].

وقال في العنكبوت:

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ . . . ﴿٥٠﴾ ﴾ [العنكبوت].

فالاختلافُ بينَ المقامين واضحٌ، وإن موقف الشِّدَّة والمجادلة بالباطل والعَنَت والتكذيب في الأنعام أظهرُ وأوضحُ، فاستعمل في الشِّدّة وقوة المواجهة (نَزَّلَ) كما في قوله: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ﴾ [الأعراف].

جاء في «ملاك التأويل»: أنهم أتوا بالفعل (نَزَّلَ) مضعَّفاً لِمَا أرادوا من التأكيد[١].

وجاء فيه أيضاً أن آية العنكبوت لم يتقدَّمْها من التهديد وشديد الوعيد ما تقدَّمَ آية الأنعام، فناسبَ ذلك ورود الفعل غيرَ مُضَعَّف[٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦﴾ [محمد].

فقال في الآية الأولى: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وفي الثانية: ﴿نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾.

ومن السِّياق يظهرُ الفرقُ بين التعبيرين:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾ [محمد].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ۝٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٢٨ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩﴾ [محمد].

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٣٢١.

(٢) ملاك التأويل ١/ ٣٢٢.

وبالنظر في الآيات يَتَّضِحُ أن الآياتِ الثانيةَ أشدُّ وأقوى في الهجوم على الكفر وأهله.

١ ـ فإن الآيات الأولى تتكلَّمُ على الكافرين ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، وهما آيتان وما بعد ذلك يكونُ الكلامُ على مَنْ قبلَهُم، في حين أن الكلامَ كُلَّه في السِّياق الثاني على الكَفَرة.

٢ ـ أنه قال في الآيات الأولى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ و﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وقال في الآيات الثانية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ و﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾. فالتهديد في الآيات الثانية أشدُّ.

٣ ـ أن صفاتِ الكفر في الآيات الثانية أشدُّ.

فقد قال في الآيات الأولى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وذكر (أنهم كرهوا ما أنزل الله) في حين ذكر في الآيات الثانية:

أ ـ أنهم ارتدُّوا على أدبارِهم مِنْ بعد ما تبيَّن لهم الهدى. وهؤلاء كفرهُم أشدُّ لأنهم ارتدُّوا بعد علم.

ب ـ أن الشيطانَ سَوَّلَ لهم وأملى لهم.

ج ـ أنهم سُيطيعون الذين كرهوا ما نَزَّلَ الله في بعض الأمر.

د ـ أنهم اتَّبعوا ما أسخطَ الله.

هـ ـ وكرهوا رِضوانه.

و ـ أن في قلوبهم مرضاً.

ز ـ أنهم يُبْطِنون الأضغانَ.

فاستعمل (نَـزَّلَ) لما هو أشدُّ وأقوى.

ومنه استعمال (نَجَّى) و(أَنْجَى)، فإن الملاحظ أن القرآن الكريم كثيراً ما يستعمل (نَجَّى) للتلبث والتمهل في التنجية، ويستعمل (أنجى) للإسراع فيها. فإن (أَنْجَى) أسرعُ من (نَجَّى) في التخليص من الشدة والكرب.

هذا وإن البناء اللُّغوي لكُلٍّ منهما يدُلُّ على ذلك كما ذكرنا.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة].

فإنه لما كانت النجاة من البحر لم تستغرق وقتاً طويلاً ولا مكثاً استعمل (أَنْجَى)، بخلاف البقاء مع آل فرعون، فإنه استغرق وقتاً طويلاً ومكثاً فاستعمل له (نَجَّى).

ونحوه قوله تعالى في سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت]. فإنه لم يذقْ حَرَّها، وإنما كانت بَرْداً وسلاماً عليه، فاستعمل (أَنْجَاهُ).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم

بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس] .

فقال في آيتي الإسراء والعنكبوت: (نَجَّاكُمْ) و(نَجَّاهُمْ) ، وقال في آية يونس: (أَنْجَاهُمْ) ، وذلك أن الأمر أشد، فإنه ذكر أن ريحاً عاصفاً جاءتهم وهم في الفُلْك وأن الموجَ جاءهم من كلِّ مكان وظنوا أنهم أحيط بهم وأنهم عاهدوا الله لئن أنجاهم لَيَكُونُنَّ من الشَّاكرين. ولم يتعهَّدوا في الحالتينِ الأخريينِ.

وهذه الحالة تتطلب الإسراع في نجاتهم وعدم المكث فيما هم فيه ، فقالوا: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ [يونس] ، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ [يونس] .

أما في الإسراء فقد قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ فلم يحددْ نوعَ الضّرِّ ولا شِدَّتَه، فقد يكونُ خفيفاً. وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ﴾ ولم يقل: (أصابكم) والمَسُّ أخفُّ من الإصابة، فاحتمل ذلك المكثَ في البحر أكثرَ مما في يونس ، فقال: (نَجَّاكم).

وأما في العنكبوت فلم يذكر أنه أصابهم مكروهٌ أو مسَّهم ضُرٌّ، وإنما هي حالةُ خوف تعتري راكبَ البحر فيدعو لنفسِه بالنجاة ، فقال: (نَجَّاهم).

فاستعمل (أنْجَى) للإسراع في النَّجاة ، واستعمل (نَجَّى) لما فيه مُكْثٌ وتَمَهُّلٌ.

ونحوه قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج] . أي: يَوَدُّ لو يفتدي بكل شيء على أن لا يدخل

لظى، ولا يذوقها لهولها، فإنه لا يحتمل ورودها بَلْهَ أن يَصْلاها. فاستعمل (يُنْجِيه) مضارع (أَنْجَى).

وقد تقول: ولكن القرآن قد يستعمل في القصة الواحدة مرة (أَنْجَى) ومرة (نَجَّى) كما في قوله تعالى في سيدنا نوح عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [يونس].

وقوله مرة أخرى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [الشعراء].

وكما في قصة ثمود فقد قال مرة: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت].

وقال مرة أخرى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [النمل]. وغير ذلك.

فنقول: إن ذلك بحسب ما يقتضيه السِّياقُ والمقامُ، فقد يتطلَّبُ المقامُ ذكرَ الإسراع في النَّجاة فيستعمل (أَنْجى)، وقد لا يتطلَّبُ ذلك فيستعملُ (نَجَّى)، وكلُّ ذلك صحيحٌ، فقد نستطيلُ أمراً وقد نستقصرهُ بحسب المقام. فقد تقولُ في مقام: (الدنيا طويلةٌ)، وقد تقول في مقام آخر: (الدنيا قصيرةٌ) ولكلِّ مقامٍ مقالٌ. وإليك إيضاحَ الفرق بينَ ما ذكرت:

قال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وقال في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا

شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ .

وواضح من السياقين أن القصة ذُكرت في النمل أكثر تفصيلاً ، وأن الموقف فيها أشدُّ مما في فُصِّلت ، فقد ذكر فيها :

١ـ أنهم فريقانِ يختصمون .

٢ ـ وأن الكفرة استعجلوا السيئةَ قبلَ الحسنةِ .

٣ ـ وقالوا لنبيهم : ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾ .

٤ ـ وأنهم تَقَاسَمُوا باللهِ على استئصالِه واستئصالِ أهلِه .

٥ ـ وأنهم مكروا لذلك وأعدوا خُطَّتَهم .

فاستدعى ذلك الإسراعَ في إنجائِهم وتدميرِ أهل الباطل ، لأن الوقتَ لم يعد يحتمل الإرجاء والإبطاء . فاستعمل (أَنْجَى) لذلك .

وليس المقام كذلك في (فصلت) فإنه لم يذكر سوى أنه هداهم ، ولكنهم استحبُّوا العمى على الهدى .

ونحو ذلك قوله تعالى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس] .

وقوله : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴿١١٩﴾﴾ [الشعراء] .

فقد قال في يونس : ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ ﴾ ، وقال في الشعراء : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ ﴾ وإليك بيان ذلك :

قال تعالى في سورة يونس : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ

وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ .

وقال في الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ .

وظاهر من السياق في القصتين أن القصةَ ذُكِرت في الشعراء بصورة أكثرَ تفصيلاً وأن الموقفَ أشدُّ والمحاجَّة أطولُ والتهديدات أشدُّ.

١ ـ فقد وصفوا المؤمنين بأنهم أراذل: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ .

٢ ـ وأنهم طلبوا طرد المؤمنين ، فقال لهم: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

٣ ـ وأنهم هددوه بالرجم إن لم يَكُفَّ عن دعوتهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ .

٤ ـ وأنّ نوحاً شكا إلى ربه تكذيبَ قومه له: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ .

٥ ـ وأنه دعا بالنجاة له ولمن معه من المؤمنين: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

فاستدعى ذلك الإسراعَ في إنجائِهم ، بخلاف ما في سورة يونس التي لم يكنْ فيها شيء من ذلك .

وهذه القصة نظيرة ما ذكرناه في قصة صالح .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة] .

وقوله : ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأعراف] .

فقال في سورة البقرة : (نَجَّيْناكم) ، وقال في الأعراف : (أَنْجَيناكم) ، ذلك أنه لم يذكر في سورة البقرة شيئاً من حالهم مع فرعون والمجتمع الذي يعيشون فيه سوى هذه الآية .

أما في سورة الأعراف فقد أطال وفصّل في حالتهم مع فرعون وقومه ابتداءً من الآية الرابعة بعد المائة إلى الآية الحادية والأربعين بعد المائة (من ١٠٤ ـ ١٤١) .

فإنه بعد أن ذكر مواجهة سيدنا موسى لفرعون ودعوته للإيمان وإظهار الآيات الدَّالَّة على صدقِه ، ذكر شأنه مع السحرة وإيمانهم به وتهديدَ فرعون لهم .

ثم ذكر قولَ الملأ لفرعون : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ .

فاستمر الأذى على ما كان عليه قبل مجيء موسى وزاد حتى قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ ﴿١٢٩﴾ ﴾

وذكروا أموراً تُبَيِّنُ حالةَ التوتُّر والمعاناة التي يعيشونَها في ذلك المجتمع مما لم يذكرْ في سورة البقرة.

لقد ذكر في الأعراف ما ذكره في البقرة من الأذى وزاد عليه، فاقتضى ذلك الإسراع في إنجائهم، فقال في البقرة: (نَجَّى) وفي الأعراف: (أَنْجَى) وهو نظير ما ذكرنا في الآيات السابقة.

ونظير ذلك ما ورد في سورة إبراهيم وهو قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

فاستعمل (أَنْجَاكم) لمّا زاد على ما في البقرة من العذاب. فإنه قال في البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ ﴿٤٩﴾﴾.

فإنه فسّر سوء العذاب بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ﴾، في حين عطف تذبيحَ الأبناء على سوءِ العذاب في آية إبراهيمَ، فجعل تذبيحَ الأبناءِ أمراً آخَرَ غير سوءِ العذاب[1]. فلما زاد في العذاب اقتضى ذلك الإسراع في الإنجاء كما ذكرنا في الأعراف.

هذا إضافة إلى تذكيرهم بنعمة الله في نَجَاتِهم. والتذكيرُ بنعمة الله في (أَنْجَى) أبلغُ من (نَجَّى) لما فيه من الإسراع في النجاة، وإن كان كلٌّ منهما من جليلِ النعم.

فاتَّضَحَ ما قلناه والله أعلم.

* * *

(١) انظر: معاني القرآن ٢/ ٦٨ ـ ٦٩، الكشاف ٢/ ١٧٢.

المبني للمجهول

لا نريد أن نبحثَ هنا المبني للمجهول ، فإنا ذكرنا كثيراً من أحواله وأمثلته في كتابنا «معاني النحو» فلا نعيد القول فيه ، وإنما عرض سؤالان في المبني للمجهول:

أحدهما: قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ببناء الفعل (يُنْزَفون) للمجهول ، في حين قال في سورة الواقعة: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ ببنائه للمعلوم.

فما السبب؟ وهل يصح وضعُ أحدهما مكانَ الآخر؟.

والآخر: هو سبب بناء الفعل (طبع) للمجهول في قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة] ، وبنائه للمعلوم في قوله: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [التوبة] .

أما الجواب عن السؤال الأول فإن (يُنْزِفُون) بكسر الزاي له أكثر من معنى. فإن معنى: (أَنْزَفَ يُنْزِفُ): نَفِدَ شرابُهُ ، ومعناه أيضاً: ذهب عقلُه وسَكِرَ.

ومعنى (يُنْزَفُ) بالبناء للمجهول: ذهب عقلُهُ من السُّكْر ، وهو من (نُزِف). جاء في (لسان العرب): «أَنْزَفَ القومُ: نَفِدَ شرابُهم. الجوهري: أَنْزَفَ القومُ ، إذا انقطع شرابُهم... والمنزوفُ: السَّكرانُ المنزوف

العقل ، وقد نُزِفَ. في التنزيل العزيز: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا يسكرونَ.

قال الفراء: وله معنيان، يقال: (أَنْزَفَ الرَّجُلُ) فَنِيَ خمرُهُ، أو (أَنْزَفَ) إذا ذهب عقلُهُ من السُّكْر ، فهذانِ وجهان في قراءة من قرأ: (يُنْزِفُونَ). ومن قرأ: (يُنْزَفُونَ) فمعناه: لا تذهبُ عقولُهم، أي: لا يسكرون»[1].

فمعنى الآية في الواقعة أن هذا الشرابَ لا يَنْفَدُ ولا ينقطعُ وأنهم لا يسكرونَ عنه.

ومعناها في الصَّافَّات أن هذا الشرابَ لا يُذْهِبُ عقولَهم فلا يسكرون عنه.

أما جوابُ السؤال الآخر وهو: هل يصح وضع أحدهما مكان الآخر؟

فالجواب عنه أن كلَّ مفردةٍ إنما وُضِعت في مكانها المناسب من أكثرَ من وجه ، ذلك أن سياقَ الآيات في سورة الواقعة إنما هو في السَّابقينَ المُقرَّبينَ ، وهم أعلى الخَلِق من المكلَّفِينَ. قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾.

وسياق الآيات في سورة الصافات إنما هو في المؤمنين المُخْلَصِينَ.

قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ۝٤٥

(١) لسان العرب (نزف) ١١/ ٢٣٨ ـ ٢٤٠، وانظر: معاني القرآن ٢/ ٣٨٥.

بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ .

والسَّابقون أعلى من هؤلاء ، فإنهم أعلى الخَلْق من المُكَلَّفِينَ ، فإنه ليس كلُّ مخلَصٍ من السَّابقين المُقَرَّبين وإن كلَّ سابقٍ مخلَصٌ ، ولذلك نرى الجزاءَ مختلفاً .

١ ـ فقد قال في الصافات : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ففسر الرزق بالفواكه .

وقال في الواقعة : ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ . فقد ذكر اللحم إضافة إلى الفاكهة . ثم ذكر أنهم يتخيرون الفاكهة واللحم . ولم يذكر في الصافات أنهم يتخيرون ، بل قال : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ . . . ﴿٤٢﴾﴾ فما في الواقعة أعلى .

وقد تقول : ولِمَ قال في الصافات : (فواكه) وقال في الواقعة : (فاكهة)؟

والجواب : أن (الفاكهة) اسم جنس ، وهي أعم وأوسع من كلمة (الفواكه) لأنه يشمل الحبة الواحدة والاثنتين والجمع ، ويشمل عموم الأنواع .

فالتُّفاحة الواحدة فاكهةٌ وليست فواكِه ، والتفاحتان فاكهةٌ وليستا فواكِهَ ، والتفاح فاكهةٌ . وأنواع الفواكه كالتين والرُّمَّان والعنب بمجموعها يقال لها فاكهةٌ .

أما الفواكه فتقال للأنواع .

وإيضاح ذلك أنك تقول للتفاح وحده فاكهة وإن كَثُر ولا يقال له : فواكه . فإن جمعت معه الرمان والتين والتمر صح أن يقال لها (فواكه) وأنْ يُقالَ لها (فاكهة) أيضاً . فالفاكهة تُطلقُ على النوع الواحد وعلى الأنواع ،

وتقال للمفرد والمثنى والجمع. أما الفواكهُ فلا تُطلَقُ إلا على ما تعدَّدَ، ولا تُطْلَقُ على الحبَّة الواحدة أو الحبَّتينِ، ولا على النوع الواحد، فتكون الفاكهةُ أعمَّ وأشملَ ويندرجُ تحت اسمِها جميعُ الفواكه.

ولما قال في (الواقعة): ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ عُلِمَ أنها أنواعٌ كثيرة وليست نوعاً واحداً. ولذا يأتي القرآن بـ (الفاكهة) في مواطن السِّعَة وذلك كقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١﴾ [الرحمن].

في حين قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝١٨ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝١٩﴾ [المؤمنون].

فلما ذكر الأرض على العموم قال: (فيها فاكهة).

ولما ذكر الجناتِ في الأرض ذكر الفواكه، وذلك أنه خصص الفواكه التي في الجنات، في حين أطلقها في آية الرحمن.

٢ ـ قال في الصافات: ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣﴾.

وقال في الواقعة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾.

فذكر أنهم مُقَرَّبون في جنات النعيم، وهو أعلى من مجرَّد الإكرام، لأنه يشملُ الإكرامَ وزيادة.

٣ ـ قال في الصافات: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤﴾.

وقال في الواقعة: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦﴾.

فذكر أن السُّرُرَ موضونةٌ، أي: منسوجةٌ بالذهب مُشَبَّكَةٌ بما يَسُرُّ النَّاظرَ.

ثم ذكر الاتِّكاءَ عليها للزِّيادة في التَّنعُّم. ولم يقلْ مثلَ ذلك في الصافات.

٤ ـ قال في الصافات: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾.

وقال في الواقعة: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾.

فلم يذكر الطائفين في آيات الصافات وذكرهم في الواقعة زيادة في التَّنعُّم.

٥ ـ قال في الصافات: ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

وقال في الواقعة: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

فزاد الأكواب والأباريق على الكأس. ولا شكَّ أن تَنوُّعَ الأواني إنما هو لِتنَوُّع الأشربة وتعدُّدِها. فَتَنعُّمُ السَّابقين أعظمُ وأعلى.

٦ ـ قال في الصافات: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

وقال في الواقعة: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾.

فذكر في (الصافات): أنها لا تُفسدُهم، أو لا تُهلكهم، أو لا تغتالُ عقولَهم[1] ولا تُسكرهم.

وذكر في (الواقعة): أنهم لا يُصيبُهم منها صُداعٌ ولا يسكرونَ، وهذا الشراب لا ينفد. وهذا أتمُّ وأعلى.

فإنه قال في (الصافات): ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ ومعنى الغَوْل: الفساد أو الإهلاك أو اغتيال العقول وهو السُّكْر. فإن كان بمعنى الفساد والإهلاك فإن نفيَهُ لا ينفي ما دونَهُ من الآفات. فإنك إذا قلت: (هذا الشراب لا يُميتُ) فإنه لا ينفي أن يكونَ فيه بعضُ أنواع العلل دونَ الموت.

---

(١) انظر: روح المعاني ٢٣/ ٨٨، الكشاف ٢/ ٦٠١.

وأما في سورة الواقعة فإنه نفى الأدنى، وهو الصُّداع، فانتفاء الأكبر إنما هو من طريق الأَوْلَى، فإذا كانوا لا يصيبُهم صُداعٌ فمن الأَوْلى أن لا يُصِيبَهم منها الغَوْلُ.

وعلى هذا فإن انتفاءَ الغَوْل لا ينفي الصُّدَاعَ، وانتفاء الصُّداع ينفي الغَوْل. فيكون ما في الواقعة أعلى.

وإذا كان الغَوْلُ بمعنى اغتيال العقول، وهو السُّكْر، فإنه نفى بقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ شيئاً واحداً عنها، فإن معنى: (لا يُنْزَفُونَ) كمعنى (لا فيها غَوْل) ولكن إحداهما صفةُ الخمرة والأخرى صفة شاربها.

وأما في الواقعة فإنه نفى عنها شيئين: الصُّداعَ والسُّكْر. وهذا أتمُّ.

ثم إنه في الصّافّات نفى عنهم السُّكْر فقال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ بفتح الزاي، أي: لا يسكرون عنها.

وأما في الواقعة فقد نفى السُّكْرَ والنَّفَادَ فقال: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ بكسر الزاي، أي: أن هذا الشراب لا يُسْكِرُ ولا يَنْفَدُ، فهذا أتمُّ وأكملُ.

٧ ـ قال في الصافات: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

وقال في الواقعة: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾

فذكر في الصافات صفة واحدة من صفاتهن الجسمية وهي (عِينٌ).

والعِينُ جمعُ عَيْنَاء، وهي الواسعة العَيْنِ في جمال.

وذكر في الواقعة صفتين وهما (حُور عِينٌ) والحورُ: البِيض.

وقال في الصافات: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

وقال في الواقعة: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾.

وأنت تحس الفرق بين تشبيه المرأة البيضاء بالبَيْضة وتشبيهها باللؤلؤة المكنونة.

٨ ـ وقال في الواقعة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

فَنَفى سماعَ الرديءِ من القول والساقط منه وأثبت الحَسَنَ وهو: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ فكان التَّنعُّم بالنفي والإثبات.

ولم يذكر مثل ذلك في الصافات.

فناسب (يُنْزِفُونَ) بالبناء للمعلوم ما في الواقعة، و (يُنزَفون) بالبناء للمجهول ما في الصافات.

ومما زاده حسناً قوله في الصافات: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ بالبناء للمجهول، فناسب (يُنْزَفُون) بالبناء للمجهول.

وقال في الواقعة: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ بالبناء للفاعل، فناسب (يُنْزِفُونَ) بالبناء للفاعل.

فانظر يا هداك اللهُ! كيف ذكر في الواقعة التقريب، وهو يشمل الإكرام وزيادة، وذَكَر السُّرُرَ وزيادة وهي أنها موضونةٌ، وذكر التَّقَابُلَ وزيادة وهو الاتِّكاءُ، وذكر الطَّوافَ وزيادة وهي الوِلدانُ المُخَلَّدُونَ، وذكر الكأسَ وزيادة وهي الأكوابُ والأباريقُ، وذكر العِينَ وزيادة وهي الحُورُ، ونفى السُّكْر وزيادة وهي عدم النَّفَادِ، وزاد نفيَ اللَّغوِ والتَّأثيم وإثبات السَّلام.

فيا ترى أين تصلحُ كلٌّ من كلمتي (يُنْزِفُونَ) و (يُنْزَفُونَ) وأين تضعُها أنت؟ وهل هذا كلامُ بشر أو هو تنزيلُ ربِّ العالَمِينَ؟

وأما الجواب عن السؤال الثاني فإن إسناد الطبع إلى الله أشدُّ تمكُّناً في

القلب من بنائِه للمجهول. فما أُسْنِدَ إليه صراحةً يكونُ أثبتَ وأقوى مما لم يسند إليه. وعلى هذا فهو يُسندُ الطبع إلى الله في مواطنِ المبالغة والتأكيد، ويبنيه للمجهول فيما هو أقلُّ من ذلك. وذلك واضحٌ في الآيتين المذكورتين وهما قوله:

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة].

وقوله: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [التوبة].

وبالنظر في السِّياقَيْنِ يتضح ذلك.

قال تعالى في سياق الآية الأولى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة].

وقال في سياق الآية الثانية: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة].

فأنت ترى أن الآخَرِينَ أشدُّ ضلالاً وكفراً من الأوَّلِينَ، يدلُّك على ذلك ما ذكره من صفاتِهم وأحوالِهم. فإنه لم يذكرْ في الأوَّلين سوى أنهم

يستأذنونَ الرسول إذا أُنزلتْ سورةٌ تأمرُ بالإيمان والجهاد، وأنهم يقولون: ﴿ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة] وعقب على ذلك بقوله: ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ ، في حين ذكر من صفاتِ الآخرينَ ما يدلُّ على شدة كفرهم وضلالهم وغضب الله عليهم ما لم يذكرْه في الأولين.

١ ـ فقد طلب اللهُ ردَّ اعتذارهم إذا اعتذروا ﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ ﴾.

٢ ـ وطلب أن يُخبروهم بعَدَم تصديقهم ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾.

٣ ـ وأن يخبروهم بأن الله نَبَّأَ المؤمنينَ بأخبارِهم وأحوالِهم ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾.

٤ ـ وطلب من المؤمنينَ أن يُعْرِضوا عنهم ﴿ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ﴾.

٥ ـ ووصفهم بأنهم رجسٌ ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾.

٦ ـ وذكر عاقِبَتَهم وسوءَ مآلِهم في الآخرة ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

٧ ـ وطلب من المؤمنين ضمناً ألّا يَرْضَوْا عنهم إذا ما حاولوا استرضاءَهم لأن اللهَ غيرُ راضٍ عنهم: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

فناسب ذلك إسناد الطبع إلى الله للدلالة على شدة تمكُّنِ الكفر في نفوسهم وقلوبهم، بخلاف الآية الأخرى.

وهذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه مما حَسَّنَ بناءَ الفعل للمجهول أيضاً في الآية الأولى ما قاله فيها (وإذا أُنْزِلَتْ سورةٌ) ببناء (أُنْزِل)

للمجهول[١]. فكما أنه لم يسند الإنزال إلى الله تعالى لم يسند الطبع إليه ، فكان بناء الفعل للمجهول في الآية الأولى أنسبَ وبناؤُه للمعلوم في الآية الثانية أنسبَ. والله أعلم.

* * *

(١) انظر: ملاك التأويل ١/ ٤٧٠.

الوصف

لقد بحثنا في كتابنا «معاني الأبنية في العربية» وكتاب «التعبير القرآني» جملةً صالحةً مما يتعلَّقُ بالوصف، وذلك كالاختلاف بين صيغ المبالغة، والصفة المشبهة، وصيغ اسم المفعول نحو: عَسِر وعَسِير وعَجِيب وعُجَاب، وكَفَّار وكَفُور وغيرها. فلا نعيدُ القولَ فيه.

ونريد أن نبحثَ هنا نمطاً آخر مما لم نبحثه هناك.

١ ـ قال تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام].

وقال: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام].

فقد قال في الآية الأولى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ﴿٩٩﴾﴾ وقال في الآية الثانية: ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ﴾ فما سر ذلك؟ ولِمَ قال في الموضعين: (غير متشابه) فنفى التشابه دون الاشتباه؟

لقد ذكر المفسِّرُونَ أن اشتبه وتشابَهَ بمعنى واحد، كاختصم وتَخَاصَمَ، واشْتَرَكَ وتَشَارَكَ، واسْتَوَى وتَسَاوَى، ونحوها مما اشترك فيه باب الافتعال والتفاعل[1].

والذي يبدو لنا أنهما ليسا بمعنى واحدٍ، وأن كلَّ لفظةٍ اختصَّت بالموطن المناسب لها.

---

(١) انظر: البحر المحيط ٤/ ١٩١، والكشاف ١/ ٥٢٠، روح المعاني ٧/ ٢٤٠.

وإليك كلاًّ من الآيتين.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام].

وقال في الآية الأخرى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأنعام].

وبالنظر في سياق كلّ من الآيتين يتَّضِحُ الفرقُ بين التَّعبيرين.

إن سياق الآية الأولى في بيان قدرة الله وآياته الباهرة في خلقه.

قال تعالى:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام].

وأما سياق الآية الأخرى ففي بيان الأطعمة وما يحلِّلُهُ ويحرمه أهل الكفر افتراءً على الله وبيان عقائدهم الباطلة.

قال تعالى:

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ . . . ﴾ [الأنعام] . ويستمر السياق.

فاتَّضَحَ الفرقُ بينَ السِّياقينِ.

وقد اتَّسمتِ الآيتان كلتاهما بسِمات السِّياق الذي وردت فيه كلُّ آية منهما. فالآية الأولى في بيان قدرة الله وآياته، والأخرى في بيان ما يُؤكَلُ من الفواكه والزرع. وإليك إيضاحَ ذلك:

١ ـ قال تعالى في الآية الأولى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ فبدأ بمرحلة ما قبل الإنبات، وبيَّنَ أنه تعالى هو الذي أنزل الماءَ من السَّماء.

ولم يذكرْ ذلك في الآية الثانية.

٢ ـ ذكر في الآية الأولى أنه أخرج به نباتَ كلِّ شيء على وجه العموم

ولم يخصِّصْه بنوع معيَّن من أنواع النبات ، وهو مما يدلُّ على القدرة الباهرة.

ولم يذكرْ مثلَ ذلك في الآية الثانية.

٣ ـ وذكر في الآية الأولى أنه أخرج منه خَضِراً مشيراً إلى تسلسل عملية النُّمُوِّ والإنبات.

ولم يذكر مثلَ ذلك في الآية الثانية.

٤ ـ ذكر في الآية الأولى أنه أخرج منه حباً متراكباً.

ولم يُشِرْ إلى الحُبوب في الآية الثانية.

٥ ـ إن القصدَ الأوَّلَ في الآية الأولى بيانُ قدرة الله البالغة ـ كما ذكرنا ـ فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ فذكر طَلْعَها وقِنْوانَها ، في حين كان المقصدُ الأوَّلُ في الآية الثانية ذكرَ المطعومات فقال: ﴿ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ ﴾ فذكر ما يُؤكَلُ من ثمار الزرع واختلاف أنواعه وطُعومه ، ولم يُشِرْ إلى الطَّلْع والقِنْوَانِ.

٦ ـ قال في الآية الأولى: ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ وهو نظر تَدَبُّرٍ وتأمُّلٍ ، في حين قال في الآية الثانية: ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ فأنت ترى أن كلَّ تعبيرٍ مناسبٌ لسياقِه.

وانظر من ناحية أخرى إلى تناسب قوله: ﴿ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ ﴾ مع قوله: ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ .

٧ ـ قال في الآية الأولى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهي الآيات الدَّالَّةُ على قدرتِه وبديعِ صنعِه.

وقال في الآية الأخرى: ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ .

فاتَّضَحَ الفرقُ بينَ السِّياقين والآيتين.

ونعود الآن إلى أصل المسألة وهو أنه لماذا قال في الآية الأولى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، وقال في الآية الثانية ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾؟

إن الفعل (اشْتَبَهَ) أكثر ما يفيدُ الالتباس والإشكال.

وإن (تشابه) أكثرُ ما يفيد معنى التشابه بين الشيئين أو الأشياء والمشاركة بينها في معنًى من المعاني، سواءٌ أدَّى ذلك إلى الالتباس أم لم يُؤدِّ.

جاء في «القاموس المحيط»: «تَشَابَها واشْتَبَها: أشْبَهَ كلٌّ منهما الآخَرَ حتى الْتَبَسا... وأمور مُشْتَبِهَةٌ ومُشَبَّهَةٌ كمُعَظَّمة: مُشْكِلَةٌ»[1].

وجاء في «تاج العروس»: «أمورٌ مُشْتَبِهَةٌ ومُشَبَّهَةٌ كمعظَّمة، أي: مُشْكِلَةٌ مُلْتَبِسَةٌ يشبهُ بعضُها بعضاً»[2].

وجاء في «لسان العرب»: «اشْتَبه عليَّ وتَشَابه الشيئانِ واشتبها: أَشْبَه كلُّ واحدٍ منهما صاحبه. وفي التنزيل: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾... وأمور مشتبهةٌ ومُشبَّهةٌ: مشكلةٌ يشبه بعضها بعضاً.

وشَبَّهَ عليه: خَلَّطَ عليه الأمرَ حتى اشْتَبَهَ بغيرِه...

﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة] فإن أهل اللغة قالوا: معنى (متشابهاً): يشبه بعضه بعضاً في الجَوْدة والحُسْنِ. وقال المفسرون: يشبه بعضه بعضاً في الصورة ويختلف في الطعم...

---

(١) القاموس المحيط (الشبه) ٤/ ٢٨٦.

(٢) تاج العروس (أشبه) ٩/ ٣٩٣.

أبو العباس عن ابن الأعرابي. . . قال: وسألتُه عن قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ فقال: ليس من الاشتباه المُشكل إنما هو التَّشَابُهُ الذي هو بمعنى الاستواء.

قال اللَّيثُ: المشتبِهاتُ من الأمور: المُشكِلات. . .

واشْتَبَهَ الأمرُ: إذا اختلطَ، واشتبه عَلَيَّ الشيءُ»[1].

وجاء في «المصباح المنير»: «اشْتَبَهَتِ الأمورُ وتَشَابَهَتْ: الْتَبَسَتْ فلم تَتَمَيَّزْ ولم تظهرْ. ومنه: اشتبهت القِبْلَةُ ونحوها. . . وتشابَهَتِ الآياتُ تَسَاوَتْ أيضاً. . . فالمشابهةُ المشاركةُ في معنى من المعاني، والاشتباه الالتباس»[2].

فاتَّضح مما ذكرناه أن (اشْتَبَهَ) أكثر ما يفيدُ الالتباس والإشكال كقولهم: (اشْتَبَهَتْ عليه القِبْلَةُ، واشْتَبَهَ عليه الأمرُ).

وأنَّ (تَشَابه) أكثرُ ما يُفيدُ المشاركة في معنًى من المعاني، سواءٌ أدى إلى الالتباس أم لم يُؤَدِّ.

ومعلوم أن الذي يستطيعُ أن يُشَبِّهَ الأمورَ حتى تلتبسَ على الناظر أو المتأمِّل فلا يُمَيِّزُ بينها أقدرُ من الذي يقدرُ على أن يجعلَ مجرَّدَ تشابه بينَ شيئين. وأن الأمور المشتبهة كلما دقّتْ كانت أدلَّ على القُدْرة والبَرَاعة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الأمور المشتبهة تحتاجُ إلى زيادةِ نظرٍ وتأمُّلٍ لإدراك حقيقة أمرِها. فوضع (مُشْتَبِهاً) في السِّياق الدَّالِّ على قدرته وآياته وفي موضِعِ الأمر بالنظر ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ دونَ الموضع

---

(١) لسان العرب (شبه) ١٧/ ٣٩٨.

(٢) المصباح المنير ٣٠٤.

الآخَرِ مما ليس في هذا السِّياق. فكان كلُّ تعبيرٍ أنسبَ في سياقِهِ الذي ورد فيه.

وأما الجواب عن السؤال الثاني وهو أنه: لِمَ قال في الموضعين: ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ فنفى التشابُهَ دونَ الاشتباه؟

فذلك لأن نفيَ التَّشابه ينفي الاشتباهَ، ونفيَ الاشتباه لا ينفي التَّشابُهَ. وإيضاحُ ذلك أنك إذا قلت: (هذانِ الشيئانِ غيرُ متشابِهَيْنِ) فقد نفيتَ التَّشَابُهَ بينهما ونفيت الاشتباهَ من باب أَوْلَى، وذلك لأنَّ الاشتباهَ إنما يحصل من شدة التشابه بين الشيئين، فإذا نفيتَ التَّشَابُهَ زال الالتباس والاشتباه.

أما إذا قلت: (هذانِ الشيئانِ غيرُ مُشْتَبِهَيْنِ) فقد نفيتَ الاشتباهَ وعدم التمييز بينهما ولكنك لم تنفِ التشابُهَ، فقد يكون بينهما تشابُهٌ لا يوقع في اللُّبْسِ.

فلو قال في الآية الأولى: (مشتبهاً وغير مشتبه) لكان نفى الاشتباه ولم ينف عنه التشابه. فعلى هذا يمكن أن يكون النوعان متشابهين في وجه من الوجوه فأراد أن ينفي ذلك فقال: ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ وهذا أدلّ على القدرة، فإن جعلَ الأشياء بعضُها متشابهٌ وبعضها مختلفٌ أدلُّ على القدرة من جعلِها كلّها متشابهةً أو جعلِها كلَّها مختلفةً. والله أعلم.

٢ ـ قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة].

وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر].

فذكّر صفة النخل في آية القمر فقال: ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ وأنثها في الحاقة، فقال: ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، فما سبب ذلك؟ وهل يصحُّ وضعُ إحداهما مكان الأخرى؟

لقد ذكر علماءُ العربية والمفسِّرونَ أن النخل اسمُ جنس يُذَكَّرُ نظراً للفظ وَيُؤَنَّثُ نظراً للمعنى ، وإنما وضع كل صفة بمكانها مراعاةً للفاصلة[١] .

والذي أراه أن ذلك مراعىً فيه المعنى أيضاً وليس للفاصلة وحدَها ، وإن كانت الفاصلةُ تقتضي أن تكونَ كلُّ لفظةٍ بمكانِها .

إن العرب قد تُؤنِّثُ للكثرة وتُذَكِّرُ للقِلَّة ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يوسف] ، و﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات] ، فذكّر (قال) لأن النسوة قلة ، وأنّث (قالت) لأن الأعراب كثرة[٢] . وقد تؤنث للمبالغة نحو : راوية وداهية[٣] .

والنخل في آية الحاقّة أكثرُ منه في آية القمر يدل على ذلك السياق .

قال تعالى في الحاقة : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ .

وقال في سورة القمر : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

ويتضح من سياق الآيات ما يأتي :

١ ـ أنه قال في القمر : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ .

وقال في الحاقة : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ .

---

(١) انظر : البحر المحيط ٨/ ١٧٩ ، روح المعاني ٢/ ٨٧ ، الكشاف ٣/ ١٨٤ .

(٢) انظر : معاني القرآن ١/ ٤٣٥ .

(٣) انظر : شرح التصريح ٢/ ٢٨٨ ، شرح ابن يعيش ٥/ ٩٨ ، همع الهوامع ٢/ ١٧٠ .

فزاد في وصف الريح في الحاقة فقال: ﴿عَاتِيَةٍ﴾، فهي أشدُّ مما في القمر، وإذا كانت كذلك كان تدميرُها أكبرَ وأبلغَ واقتلاعُها أكثرَ.

٢ ـ قال في القمر: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾.

وقال في الحاقة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ فذكر في القمر أنه أرسلها عليهم في يوم، وذكر في الحاقَّة أنه سخرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ، فزاد في وقتِ التَّدميرِ والعذابِ. ولا شكَّ أن طولَ المُـدَّةِ يقتضـي تدميـراً أكثرَ وأبلغَ. فالريحُ تقتلعُ وتدمِّرُ في سبع ليال وثمانية أيام أكثرَ مما تفعلهُ في يوم. فزاد في النَّخل المُقْتَلَعِ في الحاقة.

٣ ـ ولما زادت الريح عتوّاً وأمداً في الحاقة ذكر أنها استأصلتهم كُلَّهم فلم تُبْقِ منهم أحداً فقال: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ ولم يقل مثل ذلك في القمر.

٤ ـ أن النخل المنقعر معناه المنخلعُ عن مغارِسِهِ الساقط على الأرض[١].

ومعنى (خاوية): خَرِبة[٢]. وقيل: خَلَتْ أعجازُها بِلىً وفَساداً[٣]. وقيل: «الخاوية معناها معنى المنقلع. وقيل لها إذا انقلعت: خَاوِيَةٌ، لأنها خَوَتْ من مَنْبِتها التي كانت تنبتُ فيه، وخوى منبتُها منه»[٤].

فالنخل الخاويةُ تشملُ النخلَ المنقعر وزيادة. فكل نخلٍ منقعرٍ هو خاوٍ وليس كلُّ خاوٍ منقعراً.

---

(١) انظر: روح المعاني ٢٧/ ٨٧، البحر المحيط ٨/ ١٧٩.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤١٢، فتح القدير ٥/ ٢٧٤.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٢١.
(٤) لسان العرب (خوى) ١٨/ ٢٦٩.

فأنَّث الخاويةَ لأنه أكثرُ من المنقعر وأن دمارَهُ أبلغ ، وجعلها في سياق الدمار الشامل.

ومن هذا يتبين:

١ ـ أن الخاوي أكثر من المنقعر.

٢ ـ أنث الخاوي فقال: ﴿خَاوِيَةٌ﴾ فزاد كثرةً ومبالغةً ، لأن التأنيث قد يأتي للكثرة والمبالغة.

٣ ـ وضع النخل الكثير المدمَّر مع الريح المُتَّصِفة بزيادة التَّدمير ، وهي صفة العُتُوِّ ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾.

٤ ـ ووضعه أيضاً مع زيادة وقت التَّدمير وهو سبع ليال وثمانية أيام بخلاف ما دمر في يوم.

٥ ـ ووضعه مع استئصال القوم فلم ينجُ منهم أحدٌ.

فأنت ترى أنه لو لم تكنِ الفاصلةُ تقتضي ما وضع لاقتضاه المعنى ، فزاد حُسناً على حُسْن ، فلا يصح وضع إحداهما مكانَ الأخرى والله أعلم.

* * *

الإفراد والتثنية والجمع

قد يستعمل القرآن الكريم المفرد في موطن ويستعمل المثنى في موطن آخر يبدو شبيهاً بالأول. وقد يستعملُ جمعاً في موطِن ويستعملُ جمعاً آخَرَ للمفردة نفسِها في موطِنٍ آخَرَ ، وقد يستعمل المفرد في موطن هو من مواطن الجمع ، وما إلى ذلك من المواطن التي تستدعي التأمل والنظر.

١ ـ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء].

وقوله: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٤٧﴾﴾ [طه].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزخرف].

فقال في آية الشعراء: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالإخبار بالمفرد عن المثنى.

وقال في آية طه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ بالإخبار بالمثنى عن المثنى.

وقال في الزخرف: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالإخبار بالمفرد عن المفرد.

وبالرجوع إلى سياق الآيات يَتَّضِحُ سبب الاختلاف.

ففي سورة الشعراء ورد ذِكْرُ لهرون مع موسى ، غير أن القصة مبنيَّةٌ على الوحدة لا على التثنية ، فقد قال على لسان موسى:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

ثم ينتقلُ إلى الوحدة .

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

ويستمر النقاش مع موسى وحده :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

ثم يُوَجِّهُ فرعونُ الكلامَ إلى موسى مُهَدداً له :

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

قال له موسى : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

قال : ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

في حين بنى الكلام في سورة طه على التثنية .

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

ويستمرُّ الكلامُ على التَّثنية .

وإليك الفَرْقَ بينَ السِّيَاقَيْنِ:

في طه	في الشعراء
ـ ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾	ـ ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾
ـ ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴿٤٧﴾﴾	ـ ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾
ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾	ـ ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾

فلما بنى الكلام في (طه) على التثنية قال: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ بتثنية الرسول. ولما بنى الكلام في الشعراء على الوحدة مع إشارات إلى هرون قال: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بإفراد الرسالة وتثنية الضمير.

ولما لم تكن أَيَّةُ إشارةٍ إلى هرونَ في الزخرف قاله بإفراد الضمير والرَّسُول: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فجعل كلّ تعبيرٍ في موطِنه الذي هو أَلْيَقُ به.

٢ ـ ومن ذلك استعمال (طفل) و (أطفال)، فهو يستعمل الطفل والأطفال للجمع. قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴿٥﴾﴾ [الحج]، وقال: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴿٦٧﴾﴾ [غافر]، وقال: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴿٣١﴾﴾ [النور].

في حين قال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ ﴿٥٩﴾﴾ [النور] فاستعمل الطفل والأطفال للجمع فما سببُ ذلك؟ ولماذا خصَّ كلَّ موطن بما استعمل فيه؟

إن العرب قد تستعمل كلمة (طفل) للمذكر والمؤنث، المفرد والمثنى والجمع فتقول: جاريةٌ طِفْلٌ وجاريتانِ طِفْلٌ وجَوَارٍ طِفْلٌ، وغلامٌ طِفْلٌ وغِلمانٌ طِفْلٌ. كما تستعملها على القياس فتقول: طِفْلٌ وطِفْلَةٌ وطِفْلانِ وطِفْلَتَانِ وأطفالٌ وطِفْلاتٌ[1]. فاستعمال (الطفل) للجمع معروف عند العرب وبه جَرْت ألسنتُهم. أما سببُ تخصيص كلِّ موطِنٍ بالاستعمال الذي ورد فيه فهذا ما يظهرُ من السِّياق.

قال تعالى في سورة الحج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴿٥﴾ ﴾.

وقال في سورة غافر: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴿٦٧﴾ ﴾.

وقال في سورة النور: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴿٥٩﴾ ﴾.

فقال في آية الحج: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾، وقال في آية غافر: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾، في حين قال في آية النور: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ ﴿٥٩﴾ ﴾، ذلك أنَّ آيتي الحجِّ وغافر تتكلمانِ على خَلْق الإنسان من تُراب ثم من نُطْفَةٍ ثم من عَلَقَةٍ، فبنى الكلام على خلق الجنس وليس على

(١) انظر: لسان العرب (طفل) ١٣/ ٤٢٥.

خلق الأفراد، فلم يقلْ خلقناكم من نُطَفٍ ثم من عَلَقَاتٍ ثم من مُضْغاتٍ، بل بناه على المفرد الذي يفيدُ الجنسَ. والنُّطْفَةُ والعلَقةُ والمُضْغَةُ تُخْرِجُ طفلاً لا أطفالاً فناسب ذلك التعبير بالجنس فقال: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ في آية الحج، و﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ في آية غافر فكلتاهما متشابهة. ومما زاد ذلك حسناً أنَّ كلمةَ (طفل) تُستعملُ في كلام العرب للمفرد والجمع فكانت أَنْسَبَ من كلِّ ناحية.

وأما آية النور فمبنية على الجمع لا على الإفراد ولا على الجنس، وهي مبيِّنة لعلاقات الأفراد في المجتمع فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ﴿٥٨﴾﴾.

والذين لم يبلغوا الحُلُم هم الأطفال وليس طفلاً واحداً، ولذلك قال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ بصيغة الجمع، فناسبَ ذلك ما قَبْلَهُ ولا يناسبُهُ الإفراد، لأنَّ الكلامَ على الجمع.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن آيةَ النُّور في الكلام على العلاقات الاجتماعية وهذا يتطلَّبُ مجتمعاً لا فَرْداً فناسب الجمعَ أيضاً.

وقد تقول: إنك ذكرتَ أن كلمةَ (طفل) قد تكونُ للجمع، فلماذا كانت كلمةُ (أطفال) أنسبَ ههنا؟

والجواب: أن كلمة (طفل) قد تكون للمفرد، وهي في المفرد أشهر منها في الجمع، في حين أن سياقَ آية النُّور ليس فيه احتمالُ إفرادٍ، فناسب التعبيرُ موطِنَهُ من كلِّ ناحيةٍ.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴿٣١﴾﴾ [النور] فيتضح سببه من السياق أيضاً. قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ

أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴿٣١﴾ [النور] .

ونود هنا أن نسجلَ الملاحظات الآتية :

١ ـ أن كلمة (الطفل) اسمُ جنس، فهو يشملُ كلَّ الأطفال. تقولُ: (الطفل لا يَعِي) وتقصدُ به عمومَ الأطفال، وبهذا المعنى يكونُ أشملَ من الجمع، فإنك إذا قلت: (لا أطفالَ في الدَّار) لا تنفي أن يكونَ طفلٌ أو طفلانِ، فإنْ قلت: (لا طفلَ في الدَّارِ) نفيتَ عمومَ الجنس: الواحد والاثنين والجمع.

٢ ـ أن كلمة (طفل) قد تصفُ بها العربُ الواحدَ والمثنَّى والجمعَ ، المذكَّرَ والمؤنَّثَ كما ذكرنا. فبهذا المعنى تشملُ الواحدَ والاثنينِ والجمعَ ، المذكَّرَ والمؤنَّثَ.

٣ ـ أن كلمة (طفل) في الآية أشملُ وأعمُّ من جميع المذكورينَ، ذلك أن البعلَ مختصٌّ بالمرأة، فهو يخصُّ واحداً بعينه والآباء كذلك، وكذلك أبو البعل وأبناء البعل وأبناءُ المرأة وكذلك الباقي ، فإنه إما مختصٌّ بأقرباء المرأة أو مِلْكُ يمينِها.

أما الطفل فهو عام غيرُ مختصٍّ بقرابة ، بل يشملُ جميعَ الأطفال ، فناسبَ استعمال الجنس، لأنه يُرَادُ به العموم.

٤ ـ أن المذكورين في الآية أشخاص مُتَعَدِّدو الإحساس والمواقف بالنسبة إلى الجنس والزينة، فكلٌّ واحد له إحساسٌ خاصٌّ به، وأما الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النِّساء فموقفُهم واحدٌ متجانِسٌ، وهو عدمُ التمييز، فكأنهم شخصٌ واحد لا تَمَايُزَ بينهم، فأفْرَدَهم وجعلهم كأنهم شخصٌ واحد.

فكان الإفرادُ ههنا أَنْسَبَ، واللهُ أعلم.

٥ ـ ومن ذلك استعمال (بني) و (أبناء)، فهو يستعمل مرة (بني) ومرة (أبناء) وذلك نحو قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴿٣١﴾﴾.

وقوله في الأحزاب: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

وههنا سؤالان:

الأول: لِمَ قال في آية النور: ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾.

وقال: ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ فاستعمل مرَّةً (بني) ومرَّةً (أبناء)؟

والسؤال الثاني: لم قال في آية الأحزاب: ﴿وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ ولم يقل: ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ كما قال في سورة النور؟

والجواب عن السؤال الأول: أن لفظة (بني) تدلُّ على الكثرة، وأنها تشملُ أكثر مما يشملُه الأبناءُ نحو بني آدَمَ، وبني إسرائيلَ، ولذلك يستعملُ القرآن (بني آدم) لمجموع البَشَر، و(بني إسرائيل) لهؤلاء القوم على مرِّ العصور، ولم يستعملْ أبناء آدم ولا أبناء إسرائيل.

وبنو الإخوان وبنو الأخَوات هم أكثرُ المذكورين في الآية. فإن الإخوان قد يكونونَ إخواناً أشقَّاءَ وقد يكونون إخواناً من الأم، وقد

يكونون إخواناً من الأب ، وحكم أبناء هؤلاء جميعاً واحدٌ فيما ذكر .

وكذلك الأخَوَات ، فإنهن قد يَكُنَّ أخواتٍ شقائِقَ ، وقد يكنَّ أَخَوَاتٍ لأمٍّ وأخَواتٍ لأبٍ ، وحكم هؤلاء جميعاً واحد أيضاً .

وهؤلاء أكثر من أبناء المرأة وحدها، وأكثر من أبناء البُعولة وحدَهم، فاستعمل (أبناء) لما هو أقلُّ ، و (بني) لما هو أكثرُ .

جاء في «روح المعاني»: «والمراد بالإخوان ما يشملُ الأعيان: وهم الإخوةُ لأبٍ وأمٍّ واحدةٍ، وبني العَلاّت: وهم أولادُ الرَّجُل من نسوة شَتَّى، والأخيافُ: وهم أولادُ المرأة من آباءٍ شتَّى، ونظير ذلك في الأَخوات. واستعمل (بني) معهم دون (أبناء) لأنه أوفقُ بالعموم، وأكثرُ استعمالاً في الجماعة ينتمون إلى شخص من عدم اتِّحاد صنف قرابتهم فيما بينهم. ألا ترى أنك كثيراً ما تسمع بني آدم وبني تميم، وقلّما تسمعُ أبناء آدَمَ وأبناء تميم.

وفيما نحن فيه قد يجتمعُ للمرأة ابنُ أخٍ شقيق وابنُ أخٍ لأبٍ وابن أخ لأمٍّ. بل قد يجتمع لها أبناءُ أخ شقيق ، أو إخوة أشقّاء أعيانٌ ، وبنو عَلاّت وأبناءُ أخٍ أو إخوةٌ لأبٍ ، وأبناء أخٍ أو إخوة لأُمٍّ كذلك.

ويتأتى مثل ذلك في ابن الأخت ، لكن لا يتصور هنا بنو العلاّت ، كما لا يتصور في أبناء الأخ الأخياف ، والاجتماع في أبنائِهِنَّ وأبناء بُعولَتِهِنَّ وإن اتَّفق لكنه ليس بتلك المَثَابَةِ»[1] .

أما الجواب عن السؤال الثاني، وهو أنه لِمَ قال في آية الأحزاب: ﴿ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ ﴾ ولم يقل: (بني إخوانهن) أو (بني أخواتهن) كما قال في آية النور ، فذلك لأن آية الأحزاب في نساء النبيّ ،

(١) روح المعاني ٨/ ١٤٢ ـ ١٤٣ .

فأبناء إخْوَانِهِنَّ وأبناء أَخَوَاتِهِنَّ أقلُّ مما في آية النور. فاستعمل لذلك (أبناء) والله أعلم.

٤ ـ ومن ذلك استعمال النخل والنخيل، فقد يستعمل القرآن أحياناً (النخل) ويستعمل أحياناً (النخيل) وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَٰبٍ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [ق].

في حين قال: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴿١١﴾ ﴾ [النحل].

وقال: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [النحل]. فما الفرق بينهما؟

لقد ذهب السهيليُّ إلى أن كلمةَ (النخيل) تفيدُ الكثرة، وذلك لأنها تتناولُ الصغيرَ والكبيرَ، أما النخلُ فهو خاصٌّ بالمُثْمِر، وعلى هذا يكونُ النخلُ أقلَّ عدداً من النخيل.

جاء في «البرهان»: «قال السُّهيلي في «الروض الأُنُف»: إذا قلت: عبيد ونخيل فهو اسم يتناول الصغيرَ والكبيرَ من ذلك الجنس. قال تعالى: ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد]، وقال: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت]. وحين ذكر المخاطَبينَ منهم قال: (العِباد). ولذلك قال حين ذكر المُثْمِرَ[1] من النخيل: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [ق]، و﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القمر]. فتأمّلِ الفرقَ بينَ الجمعين في حكم البلاغة واختيار الكلام»[2].

---

(١) في (البرهان): الثمر، وما أثبتناه أشبه بالصواب.

(٢) البرهان ٤/ ٢١.

والذي أراه العكس ، فإنَّ النخل أكثر من النخيل ، وذلك أن النخل اسم جنس جمعي، والنخيل جمع ، واسمُ الجنس أشملُ وأعمُّ من الجمع كما قرَّره علماءُ اللغة، وكما هو في الاستعمال القرآني، ذلك أن اسمَ الجنس يشملُ المفردَ والمثنَّى والجمعَ، ويقعُ على القليل والكثير، فيصح أن يقول من أكل تمرةً واحدة: (لقد أكلتُ التَّمْرَ)، ولا يصحُّ أن يقول: أكلتُ تمرتينِ ولا تَمَرَاتٍ ولا تُموراً. ويصحُّ أن يقول من شاهد نخلةً واحدةً أو نخلتين: (لقد شاهدت النَّخْلَ) ، ولا يقول: شاهدت النَّخِيلَ ولا النَّخَلات.

جاء في «شرح الرضي على الشافية»: «اعلم أن الاسم الذي يقع على القليل والكثير بلفظ المفرد ، فإذا قصد التنصيص على المفرد جيء فيه بالتاء ، يسمى باسم الجنس. . .

وأما المعنى فلوقوع المجرَّد من التاء منه على الواحد والمثنى أيضاً ، إذ يجوزُ لك أن تقولَ: أكلتُ عِنَباً أو تفاحاً ، مع أنك لم تأكلْ إلاّ واحدةً أو اثنتينِ. بل قد يجيءُ شيءٌ منه لا يُطْلَقُ إلا على الجمع ، وذلك من حيث الاستعمال لا من حيث الوضع ، كالكَلِم والأكَمِ وهو قليلٌ.

فنقول: مثل هذا الاسم إذا قصدت إلى جمع قِلّتِه جمعتَهُ بالألِف والتاء ، وإذا قصدتَ الكثرةَ جرَّدْتَهُ من التاء ، فيكون المجرَّدُ بمعنى الجمع الكثير ، نحو: نملةٍ ونَمْل ونملاتٍ»[1].

وجاء في «شرح الرضي على الشافية»: «ويخرج أيضاً ـ يعني عن الجمع ـ اسمُ الجنس ، أي: الذي يكونُ الفرق بينه وبينَ مفردِه بالتاء ، نحو: تَمْرَةٍ وتَمْرٍ ، أو بالياء نحو: رُومِيٍّ ورُومٍ ، وذلك لأنها لا تدل على

(١) شرح الرضي على الشافية ٢/ ١٩٣ ـ ١٩٦.

آحاد اللفظ ، إذِ اللّفظُ لم يوضع للآحاد ، بل وُضِع لما فيه الماهية المعينة سواءٌ كان واحداً أو مثنىً أو جمعاً . . .

إن اسم الجنس يقعُ على القليل والكثير ، فيقعُ [على][1] التَّمْرَةِ والتَّمْرَتَيْنِ والتَّمَرَاتِ ، وكذا الرُّوم. فإن أكلتَ تمرةً أو تمرتينِ وعاملت روميا أو رومِيَّيْنِ جاز لك أن تقول: أكلتُ التَّمْرَ وعاملتُ الرُّومَ. ولو كانا جَمْعينِ لم يجزْ ذلك ، كما لا يقعُ رجالٌ على رَجُلٍ ولا رَجُلَيْنِ»[2].

وأما ما ذكره السهيلي في «الروض الأُنُف» ففيه نظر من حيث اللغة، ومن حيث الاستعمال القرآني، فإن الله كما قال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت] قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر] ، وكما قال: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ [ق] فذكر التَّمر فإنه قال: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴿٤﴾﴾ [الرعد] وهو مثمرٌ أيضاً. وقال: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴿٦٧﴾﴾ [النحل] فالنَّخيلُ يقال للمثمِر وغيره، وكذلك النَّخل.

أما الفرق بينهما فما ذكرناه: وهو أن النَّخْلَ أعمُّ وأشملُ من النَّخِيل، لأنه اسمُ جنس جمعي، وهذا ما قرَّره علماءُ اللغة ويؤيِّدُهُ الاستعمالُ القرآنيُّ. يدُلُّ على ذلك أن القرآنَ أورد (النخيل) في ثمانية مواضِعَ ، وهي فيها لا تفيدُ الشمولَ.

فقد قال: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة] .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) شرح الرضي على الشافية ٢/ ١٧٨ .

وقال: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء].

وقال: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المؤمنون].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس].

فأنت ترى في هذه الآيات الأربع أنه جعلَ النخيلَ في جنَّاتٍ، فلا يشملُ ما في غيرِ الجَنَّاتِ، فلا تدخل فيها النخلةُ الواحدةُ أو النخلتانِ وقليلُ النَّخْلِ.

وقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴿٤﴾﴾ [الرعد]. فقال: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ فخرج ما لم يُسْقَ بماء واحد.

وقال: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴿٦٧﴾﴾ [النحل]. فخرج منه ما لم يُتَّخَذْ منه السَّكَرُ.

أما النخل فهو عامٌّ يشملُ الصغيرَ والكبيرَ، المثمرَ وغيرَهُ، سواء كان في جنات أم في غيرِها، وسواءٌ كانت نخلةً واحدةً أم أكثرَ.

قال تعالى في وصف الجنة: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن]. ونخل الجنة كثيرٌ كثير.

وقال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الشعراء].

والنخل ههنا يشملُ ما في الجنَّاتِ وغيرِها.

وقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١﴾ [الرحمن].

وهو يشملُ جميعَ النخل سواءً كان في جنّاتٍ أم لم يكنْ.

وقال: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر].

وقال: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة].

وقال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ۝٧١﴾ [طه].

وقال: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾ [ق].

فأنت ترى أنه لم يُخَصِّص النخلَ بشيء، فهو أعمُّ من النخيل وأشملُ.

وقد تقول: ولكن القرآنَ قد يستعملُهما استعمالاً واحداً، وذلك نحو قوله تعالى في سورة النحل: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾.

وقوله في سورة عبس: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾.

فاستعمل النَّخْلَ والنَّخِيلَ لما يخرجُ من الأرض على وجه العموم، ولم يُخَصِّصِ النخيلَ بشيء.

والحق أن السياق مختلف وأن (النخل) في عبس أكثرُ من (النخيل) في النحل. وإليك ما يوضحُ ذلك:

١ ـ أنه قال في النحل: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

وقال في عبس: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾.

والصبُّ أكثرُ من الإنزال ، علاوة على أنه أكَّده بقوله : ﴿صَبًّا﴾ .

٢ ـ جعل الماءَ في النحل للشَّرابِ والشَّجَر فقال : ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ .

في حين خصَّص الماءَ في عبس للطَّعام ولم يذكر الشرابَ . فالماء المعدُّ للزِّراعة في عبس أكثرُ ، فإنه لم يُخَصِّصْ قسماً منه للشرب ، بل جعله للطعام خاصَّة .

٣ ـ ثم إن المنتوجات في عبس أكثرُ ، فقد ذكر في النحل : الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومن كلِّ الثمرات .

وذكر في عبس الحبَّ والعنبَ والقضْبَ والزيتونَ والنخلَ والحدائقَ الغُلْبَ ، وهي الملتفةُ الكثيرةُ الشجر ، والفاكهةَ والأبَّ ، فلما زاد في الماء المخصَّص للزَّرْع في عبس ، زادت المنتوجات في النوع والكمية .

٤ ـ ذكر النَّخِيلَ والأعنابَ بصورة الجمع في النحل .

وذكر النَّخْلَ والعِنَبَ بصورة اسم الجنس الجمعي في عبس وهو أكثرُ .

٥ ـ قال في النحل : ﴿هُوَ الَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ ۝١١﴾ بإسناد الفعل إلى ضمير الغيبة .

وقال في عبس : ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا﴾ ، بإسنادِ الفعل إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع للتعظيم . وهذا يقتضي الزيادةَ في التَّفَضُّل على الإنسان فيما ذكر .

٦ ـ ثم انظر كيف أنه لما زاد في الكمية والأنواع في عبس جاء بضمير الجمع فقال : (أنّا . صببنا . شققنا . فأنبتنا) .

وجاء بضمير الإفراد في النحل.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق].

فاستعمل (النخل) في آية (ق) ولم يستعمل (النخيل) كما في النحل.

ويَتَّضِحُ سببُ ذلك في النظر في الآيتين:

١ ـ فقد أسندَ إنزالَ الماء في (ق) إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع للتعظيم (ونزّلنا)، في حين أسنده في النحل إلى ضمير الغائب كما أسْلَفْنا. والإسناد إلى المتكلم يقتضي زيادةَ التَّفَضُّلِ والإحسان.

٢ ـ قال في النحل: ﴿أَنزَلَ﴾، وقال في (ق) ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ بالتضعيف للدَّلالة على التكثير. فالماءُ في (ق) أكثرُ.

٣ ـ قال في النحل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾.

وقال في (ق): ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾.

فوصف الماء في (ق) بأنه مبارك ولم يصفه بذلك في النحل. والمباركُ هو الكثيرُ الزائدُ، فإن البركةَ هي: النَّمَاءُ والزيادةُ[1].

فما في النخل يصدق على الإنزال القليل والكثير، بخلاف ما في (ق).

٤ ـ جعل الماءَ في النحل للشَّراب والشَّجَر والزَّرْع، في حين خصَّه في (ق) بالإنبات. فجعل الماءَ الكثيرَ للزَّرْع خاصَّة، وهذا يقتضي زيادةَ المنتوجات الزراعية في (ق) على ما في النحل، ومن هذه المنتوجات النخلُ.

وهذا نظير ما ذكرناه في النحل وعبس.

---

(١) انظر: لسان العرب (برك) ١٢/ ٧٥، القاموس المحيط (البركة) ٣/ ٢٩٣.

٥ ـ لقد قسم الماء في النحل على ثلاثة أشياءَ: الشراب وما يأكلُه الإنسانُ وما يأكلُه الحيوانُ ، فقال: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ، أي: تَرْعَوْن ماشِيَتكم. وقال: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ﴾، وهو عامٌّ يأكلُه الإنسانُ والحيوانُ.

في حين جعل الماء الكثير في (ق) لما يأكلُه الإنسانُ فقال: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ .

وهذا يقتضي زيادةَ المنتوجاتِ من هذا النَّوْع من الزَّرْع ، فكان ما في (ق) أكثرَ.

فلما ضاعف في التنزيل وأسنده إلى نفسِه وبارك في الماء وخصَّهُ بإنبات ما يأكلُه الإنسانُ، زاد في الإنتاج في (ق) فقال: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ بصيغة اسم الجنس الجمعيّ.

ولما لم يقل مثل ذلك في النحل قال: ﴿وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَابَ﴾. فذكر النخلَ في مواطن التكثير.

فدلَّ ذلك على أن النخلَ أعمُّ وأشملُ من النخيل.

ثم انظر كيف أنه لما كان المقامُ في سورة (ق) مقامَ ذكر الزينة والجمال فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾. فذكر زينة السماء وبهجةَ الزرع في الأرضِ وذكر جمال النخل فقال: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ۝١٠﴾ وهو صورةٌ جميلةٌ من صُوَر النخل. ثم وصف ثَمَرَها بقوله: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ وهي صورة جمالية أخرى ، فناسب بين الصُّورة والمقام.

ولا نريد أن نطيلَ في هذا الأمر ، وإلا فالكلامُ فيه يطولُ.

* * *

الحركة غير الإعرابية

وردت في القراءة المشهورة كلماتٌ محرَّكَةٌ بغير الحركة المألوفة المشهورة ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح] . وقوله: ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الكهف] بضم الهاء في (عليه) و (أنسانيه) مع أن المشهورَ في نحو هذا كَسْرُ الهاء، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء] . وقال: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴿١١﴾ ﴾ [القصص] .

ويحسن أن نشيرَ هنا إلى أن ضمَّ الهاء في نحو هذا لغةُ الحجاز ، وأما غيرهم فيكسرها .

جاء في «شرح الرضي على الكافية»: «وحركة هاء المذكر ضمةٌ إلا أن يكونَ قبلَها ياءٌ أو كسرةٌ. فإن كان قبلَها أحدهما فأهلُ الحجاز يُـبْـقُـونَ ضمَّتَها ويقولون: (بِهُو) و (لَدَيْهُو) وغيرُهم يكسرونها»[1] .

والقرآن نزل في هذا بلغة سائر العرب .

وهنا يعرض سؤال وهو: لماذا ورد في هذين الموطنين الضم دون الكسر؟

وينبغي لنا قبل أن نُجِيبَ عن السُّؤال أن نشيرَ إلى حقيقةٍ لُغَويَّـة معلومة

---

(١) شرح الرضي على الكافية ٢/ ١١، وانظر: الهمع ١/ ٥٨ ـ ٥٩ .

اتَّفق عليها علماء اللُّغة قديماً وحديثاً ، وهي أن الضَّمَّة أقوى الحَرَكات وأثقلُها ، ثم تليها الكسرةُ ، ثم تليها الفتحةُ ، وهي أخفُّ الحَرَكات[١] .

وقد يسبقُ إلى الوهم أن الكسرةَ أثقلُ من الضَّمَّة لما سمعوه وتعلَّموه من قواعد كتابة الهمزة أن الكسرةَ أقوى الحَرَكات بالنسبة إلى رسم الهمزة ثم الضَّمَّة ثم الفتحة .

فنقول : إن هذا أمرٌ إملائيٌّ لا علاقةَ له بالنُّطْق ، ولا علاقةَ له بالحقيقة اللغوية الثابتة .

إن النُّطْق بالضَّمَّة يحتاجُ إلى جَهْد عَضليٍّ أكثرَ من الكسرة والفتحة ، وذلك لأنها لا تُنْطَقُ إلا بانضمام الشَّفَتَيْنِ وارتفاعِهما ولا تحتاجُ الكسرةُ ولا الفتحةُ إلى ذلك[٢] كما هو ظاهرٌ ومعلوم .

وهذه الحقيقة تُفَسِّرُ كثيراً من الظواهر اللُّغوية في الأبنية والتأليف[٣] .

ونعود إلى مسألتنا لِنَرَى سر التعبير في نحو ما مر .

١ ـ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح] .

فقال : (عليهُ) فجاء بالضمة التي هي أثقلُ الحركات للدلالة على ثِقَل هذا العهد وعَظَمَتِه ، وذلك من جملة نواحٍ منها :

أ ـ أنه قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ وهذه البيعةُ كانت يومَ

---

(١) انظر : التصريح (١/ ٥٩) .

(٢) انظر : التصريح ١/ ٥٨ .

(٣) انظر على سبيل المثال : المحتسب لابن جني ٢/ ١٨ ـ ١٩ ، معاني الأبنية في العربية ١٠٠ ـ ١٠٢ .

الحُدَيْبِيَةِ ، وكانت بيعةً على الموت في نصرة الرسول[١] ﷺ ونصرة دينه . والبيعة على الموت أشدُّ وأثقلُ أنواعِ البَيْعات وأقواها .

ب ـ وقال : ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ ، وهذا تعظيمٌ لهذه البَيْعة التي يكونُ فيها الله هو الطّرَفَ المُبَايَعَ .

ج ـ وقال : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وهذا توكيدٌ لما قبلَه وتوثيقٌ لأمر هذه البَيْعة العظيمة .

د ـ حذَّر من نَكث هذه البَيْعَةَ ونقضَ هذا العهدَ ، وقال : إن ضررَ نكثِهِ يعودُ على الناكث نفسِه .

هـ ـ وذكر أنه من أوفى بهذا العهد سيؤتيه اللهُ أجراً عظيماً . فهو كما ترى عهدٌ عظيمٌ ثقيلٌ ، فناسب أن يأتيَ بأثقلِ الحركات وهي الضَّمَّةُ مجانسةً لِثِقَلِ هذا العهد .

ثم إن الضَّمَّةَ يُنْطَقُ معها لفظُ الجلالة بتفخيم اللاّم ، بخلاف الكسرة ، فإنها يُنْطَقُ معها لفظُ الجلالة بترقيق اللام ، فجاء بالضَّمِّ ليتفخَّمَ النُّطْقُ بلفظ الجلالة إشارةً إلى تفخيم العهد ، فناسبَ بينَ تفخيم الصوت وتفخيم العهد . وهو تناظرٌ جميل .

جاء في «روح المعاني» في هذه الآية : «وقرأ الجمهورُ (عليه) بكسر الهاء كما هو شائعٌ وضمّها حفص . . .

وحسَّن الضَّمَّ في الآية التَّوَصُّلُ به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المشعِر به الكلامُ ، وأيضاً إبقاء ما كان على ما كان ملائم للوفاء بالعهد وإبقائه وعدم نقضه»[٢] .

---

(١) انظر : روح المعاني ٢٦/ ٩٧ .
(٢) روح المعاني ٢٦/ ٩٧ .

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف] بضم هاء (أنسانيهُ) والمشهور في هذا الكسر كما ذكرنا.

وهذا في الحوت الذي تَزَوَّدَهُ سيدنا موسى وفتاه وهما يبحثانِ عن الرجل الصالح. فقد أمر اللهُ موسى أن يتزَوَّدَ حوتاً مالحاً، فحيث يفقدُه فهناك يَجِدُ الرَّجُلَ.

وهذا الحوت على ما جاء في صحيح مسلم حُوتٌ مُمَلّح[١]، وقيل: هو حوتٌ مشويٌّ، وفي رواية: كانا يُصِيبانِ منه حاجَتَهما إلى الطّعام[٢].

والظاهر من سياق الآيات أنه كان مشوياً، بدليل قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطباً فتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف]. فهذا يدلُّ على أن الحوتَ كان جاهزاً لأنْ يُؤكَلَ.

غير أن هذا الحوتَ المُمَلَّحَ المَشْوِيَّ المأكولَ منه سَرَتْ فيه الحياةُ واتَّخَذَ سبيلَه في البحرِ والفتى ينظرُ إليه، وكان عندَ جريهِ ينعقدُ فوقَه الماءُ فيكونُ كالنفق والحوتُ يجري في داخِلِهِ. وإليك قولَ الله فيه:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الكهف].

جاء في «روح المعاني» في قوله: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي: «مسلكاً كالسَّرَب، وهو النَّفَقُ. فقد صحَّ من حديث الشيخين والتِّرْمذي

---

(١) صحيح مسلم ج ٧/ ١٠٥.

(٢) انظر: روح المعاني ٢٥/ ٣١٤، فتح القدير ٣/ ٢٨٧.

والنَّسائي وغيرِهم أن الله تعالى أمسك عن الحوتِ جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق. والمرادُ به: البناءُ المُقَوَّسُ كالقنطرةِ»[١]. وهذا المشهد من أعجب العجب. وفيه أمرانِ كلٌّ منهما يدعو إلى العَجَب أكبر من صاحبه.

الأمر الأول: أنْ يحيا حوتٌ مشوِيٌّ مأكولٌ منه.

والثاني: أن يجريَ في البحر، فينعقدَ فوقَه الماءُ كأنه الطَّاقُ حيث جرى فيكون له كالنفق.

جاء في «فتح القدير»: «﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ أي: قال فتى موسى لموسى. ومعنى الاستفهام تعجيبٌ لموسى مما وقع له من النِّسيان هناك مع كون ذلك الأمر مما لا يُنسى، لأنه قد شاهد أمراً عظيماً من قدرة الله الباهرة... والتقدير: أرأيتَ ما دهاني أو نابَني في ذلك الوقتِ والمكان...

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ وموضعُ التَّعَجُّب أن يحيا حوتٌ قد مات وأُكِلَ شقُّه ثم يَثِبُ إلى البحر ويبقى أَثَرُ جريتِهِ في الماء، لا يمحو أَثَرَها جَرَيانُ الماء»[٢].

وهذا المشهدُ لا يُنسى على مَرِّ الأزمان، فكيف يُنْسَى بعدَ لَحَظَات، فإن هذا من أقوى مواطنِ النِّسيان وأغربها وأعجبِها، فعدَلَ في التعبير من الكسر إلى أقوى الحَرَكات وهي الضَّمَّةُ للإشارة إلى نُدْرَة مثل هذا النسيان وقُوَّتِهِ. فناسب بين قوة النسيان وقوة التعبير، وندرة مثل هذا النسيان وندرة مثل هذا التعبير.

جاء في «روح المعاني»: «وضم حفصٌ الهاء في (أنسانيه) وهو قليل

---

(١) روح المعاني ١٥/ ٣١٥.
(٢) فتح القدير ٣/ ٢٨٨.

في مثل هذا التركيب قلّة النسيان في مثل هذه الواقعة. . . وفي إيثار أن والفعل على المصدر نوع مُبَالَغَةٍ لا تخفى»[١].

فناسب الضم هنا من جهتين:

١ ـ قوة الحركة وهي الضَّمَّة مناسبة لقوة النِّسيان.

٢ ـ ندرةُ هذه الحركة في مثلِ هذا الموطن مناسبةٌ لندرة النسيان في مثل هذا الموطن. والله أعلم.

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران] بضم راء (يضرُّكم) اتباعاً لضمَّة الضاد، والمشهور في نحو هذا فتحُ الراء أو فكُّ الإدغام والجزم كقوله تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة].

جاء في «البحر المحيط»: «وقرأ الكوفيون وابنُ عامر: (لا يَضُرُّكم) بضم الضاد والرّاء المشدَّدة من ضَرَّ يضرّ. . . وقرأ عاصم فيما روى أبو زيد عن المفضَّل عنه بضم الضَّادِ وفتح الرَّاء المشدَّدة، وهي أحسنُ من قراءة ضم الرَّاء، نحو: لم يردَّ زيد. والفتح هو الكثيرُ المستعمل»[٢].

وقوله: إن فتحَ الراء أحسنُ من قراءة ضم الراء فيه نظرٌ. نعم إنه أشهر وأكثرُ ولكن ليس أحسنَ. وكيف تكون أحسنَ وهي ليست قراءةً متواترةً. فهي ليست من القراءات السبع ولا العشر، بخلاف هذه القراءة، فإنه قرأ بها أربعة من القراء السبعة، وهم عاصمٌ وحمزةُ بن حبيب الزَّيَّات والكسائيُّ وابنُ عامر، إضافة إلى ابن جعفرٍ من العَشَرَة[٣].

---

(١) روح المعاني ١٥/ ٣١٨.

(٢) البحر المحيط ٣/ ٤٣.

(٣) انظر: النشر ٢/ ٢٤٢.

إنه ليس لأحد أن يُفَضِّلَ قراءةً غيرَ متواترة على متواتِرَةٍ، بل ليس له أن يُفَضِّلَ قراءةً متواترةً على أخرى متواترةٍ. نعم إن له أن يختارَ لا أن يُفَضِّلَ، فإن القراءاتِ المتواترةَ كلَّها ثابتةٌ عن رسول الله ﷺ ثبوتاً قطعياً لا تَرَدُّدَ فيه.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن لقراءة الضم وجهاً حسناً في أداء المعنى في هذا الموضع، ذلك أن الضَّمَّةَ أثقلُ من الفتحة كما ذكرنا.

والقراءة بالفتح في هذا الموضع تُشيرُ إلى أنه ليس ثَمَّةَ شيءٌ من الضَّرَرِ يُصِيبُهم.

وأما القراءة بالضم فكذلك، إلا أن فيها إشارةً إلى ثِقَلِ الحالة التي هم فيها، وأنه لم يَضُرَّهُمْ الكيدُ إلا أنهم قد ينالُهم الأذى، كما قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران]. ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران] أي: تَصْبِروا على أذاهم ومضايقتِهم وتصبروا على طاعة الله، وتتَّقوا المُحَرَّمات وأسباب الوَهْن ومنافذ أعداء الله، مما يدلُّ على أن ثمةَ أذىً قد يُصِيبُهم.

جاء في «روح المعاني»: «وإن تصبروا على أذاهم أو على طاعة الله تعالى ومضض الجهاد في سبيله (وتتَّقوا) ما حَرَّمَ عليكم لا يَضُرُّكم كيدُهم ومكرُهم»[(١)].

وجاء في «البحر المحيط» في هذه الآية: «قال ابن عباس: وإن تصبروا على أذاهم وتَتَّقوا اللهَ ولا تقنطُوا ولا تسأمُوا أذاهم وإن تكَرَّر»[(٢)].

فالقراءة بالفتح تُشيرُ إلى أن ليس ثَمَّةَ شيءٌ من ذلك يُصِيبُهم وإلى تهوين أمرهم.

---

(١) روح المعاني ٤/ ٤٠ ـ ٤١.

(٢) البحر المحيط ٣/ ٤٣.

أما القراءة بالضم فتشير إلى أن هذه الحالةَ أثقلُ وأشقُّ من الأولى. فهي تحتاجُ إلى مراقبة وصبر وتقوى، وأنهم مع ذلك قد ينالُهم الأذى والمكارِهُ. فالقراءة بالفتح تُخَفِّفُ الأمرَ وتُهَوِّنُهُ وذلك لخفة الفتحة. والقراءة بالضم تشدده وفيها إشارة وتوجيه إلى ضرورة الحزم والصبر ليستعدوا لما قد ينالُهم من الأذىوالمكروه ، وإن كان أخبر أن الكيدَ لا يضرهم.

فكان للضمة وجهٌ حسنٌ ، والله أعلم.

* * *

تعاور المفردات

قد تتعاورُ المفردات في التعبير القرآني ، فتستعملُ مفردة في موطِن ، وتستعمل غيرها في موطن آخَرَ شبيهٍ به ، بل في القصة الواحدة قد تستعملُ مفردة في موضع وتستعملُ غيرها في موضع آخَرَ مع أن القصة واحدة والموقف واحد ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ ﴿٦٠﴾﴾ في سورة البقرة ، وقوله في سورة الأعراف: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ ﴿١٦٠﴾﴾ . والانفجار بالماء أغزرُ من الانبجاس[1] فخالف بين المفردتين مع أن القصة واحدةٌ والموضعَ واحد.

وكقوله تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾﴾ في سورة مريم ، وقوله: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ ﴿٤١﴾﴾ في آل عمران، فمرة قال: (ثلاث ليال) ومرة قال: (ثلاثة أيام). إن القصَّةَ واحدةٌ، وهي قصة سيدنا زكريا عليه السلام واللَّيالي غيرُ الأيام.

وكقوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴿٦٣﴾﴾ في البقرة ، وقوله: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ ﴿١٥٤﴾﴾ في النساء ، في حين قال في الأعراف: ﴿۞ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ ﴿١٧١﴾﴾ فاستعمل ﴿ٱلطُّورَ﴾ في البقرة والنساء ، غير أنه استعمل لفظ ﴿ٱلۡجَبَلَ﴾ في الأعراف والقصة واحدة. ونحو ذلك كثير في القرآن الكريم. وقد ضربنا أمثلة لذلك في كتاب «التعبير القرآني».

---

(١) انظر: (معترك الأقران) ١/ ٨٧ ـ ٨٨، درة التنزيل ١٤ ـ ٢٠، البرهان للكرماني ٨٨ ـ ٨٩.

إن الذي نريد أن نوضحه هنا أن ذلك ليس تناقضاً ولا اختلافاً ، بل إنَّ ما ذكره في الموضعين حقٌّ حتى لو اختلف معنى المفردتين. ذلك أن المذكور قد يكونُ عامّاً في موطِنٍ وخاصّاً في موطِنٍ آخَرَ ، وقد تكونُ له حالتانِ فيذكر حالة في موطن ويذكر حالة أخرى في موطن آخر. وقد يكون الأمر عاماً فيذكرُ جزءاً منه في موطنٍ ويذكرُ الجزءَ الآخَرَ في الموطِن الآخر وهكذا. وكلُّ ذلك بحسب ما يقتضيه السياقُ والمقامُ ، كما سنبيِّنُ ذاك.

ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى في البقرة: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ ﴿٦٠﴾﴾ ، وقوله في الأعراف: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ ﴿١٦٠﴾﴾ ، فقد تقول: إذا كان الانفجارُ أكثرَ وأغزرَ من الانبجاس فلم قال مرة: (انْفَجَرَتْ) وقال مرَّة أخرى: (انْبَجَسَتْ) ، وما حقيقةُ الأمر أهي انفجرتِ العيونُ بالماء أم انبجستْ؟

والجواب: أن كلا الأمرين حصل ، فقد انفجرت أولاً بالماء الكثير ـ كما قيل ـ ثم قَلَّ بمعاصيهم ، فأخذ ينبجِسُ ، فذكر حالةَ الانفجارِ في موطِنٍ وحالةَ الانبجاس في موطِنٍ آخَرَ ، كما ذكرنا في «التعبير القرآني»[1]. فالأمران واقعان وكلاهما حقيقة ، غيرَ أنه ذكرَ حالةَ كلٍّ منهما تَبَعاً لما يقتضيه السِّيَاقُ ، ولو غَايَرَ بينهما فاستعملَ الانفجارَ مكانَ الانبجاسِ لكان خلافَ الأوْلى ، وخلافَ ما يقتضيه السِّيَاقُ والمقامُ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾﴾ [مريم] .

وقوله: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران] .

فقد ذكر في سورة مريم أنه لا يكلِّمُ الناسَ ثلاثَ ليال ، وذكر في

(١) انظر: التعبير القرآني ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

آل عمران أنه لا يكلِّمُ الناسَ ثلاثةَ أيام. والأيامُ غيرُ الليالي ، فإنَّ اليومَ من طلوع الشمس إلى غروبها ، واللَّيْلُ ما يقابِلُ النَّهَارَ ، فما حقيقةُ الأمرِ أهو لا يُكلِّمهم ثلاثةَ أيامٍ أم ثلاثَ ليالٍ؟

والجواب: أن كلا الأمرين حقيقةٌ ، فهو لا يتمكَّنُ من أن يُكَلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيام بلياليهنَّ ، فمرة ذكر الأيام ومرة ذَكَرَ اللَّيالِيَ ، وكلٌّ ذلك صحيحٌ ولا تناقضَ ، غيرَ أنه ذكرَ اللَّياليَ في موطِنٍ والأيامَ في موطنٍ لسببٍ اقتضاه المقامُ ، كما سنبينُ ذاك.

ومِثْلُ ذلك ما استعملَه في الطور والجبل. فإن الطُّورَ جبلٌ ، غير أن اختيار كلِّ لفظة كان لسببٍ اقتضاه المقامُ.

وهكذا كلُّ ما ورد بلفظين مختلفين في القصة الواحدة أو الموقفِ الواحد ، فإنَّ كلَّ ذلك حقيقةٌ ليس ثَمَّةَ تناقُضٌ أو اختلافٌ بينَ الأمرينِ ، إلا أنَّ اختيارَ لفظٍ على آخَرَ في كلِّ موطِنٍ له سَبَبُهُ.

هذا قول نقولُه على سبيل الإجمال.

وإليك مزيداً من الإيضاح والتَّفصيل.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [البقرة].

وقال: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأعراف].

فقال في البقرة: (فانفجرت) وقال في الأعراف: (فانبجست) كما

ذكرنا، وقد ذكرنا في «التعبير القرآني» هذه القصة وما ورد منها في سورتي البقرة والأعراف ، وذكرنا أوجهَ الاختلافِ بينَهما وتعليلَ ذلك وأشرنا إلى أسبابِ التعبير بالانفجار والانبجاس وغير ذلك من مواطنِ الاختلاف[١] .

ولا نريد أن نعيدَ ما ذكرنا هناك ، غيرَ أنا نقولُ على سبيل الاختصار والإيجاز: إنه عبَّر بالانفجار في سورة البقرة والانبجاس في سورة الأعراف لجملة أسباب منها ـ والله أعلم ـ:

١ ـ أن موسى هو الذي استسقى في سورة البقرة: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ فناسب إجابته بانفجار الماء ، في حين ذكر في سورة الأعراف أن قومَه هم الذين استسقوا موسى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ ﴾ والحالةُ الأولى أكملُ ، فناسب إجابته بانفجارِ الماء دونَ الثانية .

٢ ـ قال في سورة البقرة: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ أي: إنَّ الله قال ذلك لموسى قولاً ، في حين ذكر في الأعراف أن الله أوحى إلى موسى بذلك وحياً ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ والحالةُ الأولى أكملُ وأتمُّ ، فإن القولَ الصريحَ من الله أكملُ وأقوى من الوحْي ، فناسب ذلك ذكرَ الانفجار في البقرة والانبجاس في الأعراف .

٣ ـ قال في سورة البقرة: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ ﴾ فجمع لهم بين الأكل والشُّرب ، ولم يَرِد في الأعراف ذكرُ الشرب ، فناسب ذلك أن يُبَالِغَ بذكر الانفجار بالماء في البقرة .

٤ ـ أن الله أسند القول إلى نفسه في سورة البقرة فقال: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟

---

(١) انظر: التعبير القرآني ٣١١ ـ ٣٢٤ .

﴿هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ ، في حين بنى القولَ للمجهول في الأعراف فقال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾.

وإسناد القول إلى نفسه يكون في مقام التكريم والتشريف ، بخلاف البناء للمجهول[1] ، فناسب في مقام التكريم ذكر الانفجار بالماء دون الانبجاس.

٥ ـ إن القصة في البقرة وردت في مقام تعداد النعم على بني إسرائيل وفي مقام تكريمهم ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

في حين أن المقامَ في سورة الأعراف مقامُ تقريعٍ وتأنيبٍ على ما فعلوه وارتكبوه من مآثِمَ ، فَنَاسَبَ في مقام تعداد النعم والتكريم ذكرُ حالةِ الانفجار دونَ الحالةِ الأخرى، والله أعلم.

فذكر في كلِّ مقامٍ ما يقتضيه من التعبير وكلاهما حقٌّ لا مِرْيَةَ فيه.

ومن ذلك استعمال الطور والجبل مع أن القصة واحدة.

قال تعالى في البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وقال في النساء: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾.

في حين قال في الأعراف: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

فاستعمل (الطور) في آيتي البقرة والنساء ، واستعمل (الجبل) في آية

---

(١) انظر: التعبير القرآني ٣١٣ وما بعدها.

الأعراف ، ذلك أن التهديدَ في آية الأعراف أشدُّ ، فاستعمل لفظَ (الجبل) لذلك ، فإن (الجبل) اسم لما طال وعَظُمَ من أوتاد الأرض[١] . ولا يشترط في الطور ذلك . «فالجبل أعظم من الطور ، ولذلك يجيء في مقام الشدة والهول وبيان المقدرة العظيمة اسم (الجبل) وذلك نحو قوله تعالى في قول موسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف] .

فانظر كيف اختار لفظ الجبل على الطور للدلالة على عظم التجلي وأثره .

ولذلك أيضاً ذكر لفظ الجبال دون الأطوار في مقام التهويل والتعظيم والدلالة على القدرة التي لا تُحَدُّ فقال : ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ] ، وقال : ﴿ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النازعات] ، وقال في يوم القيامة : ﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ ﴾ [التكوير] . وقال : ﴿ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ ﴾ [الغاشية] . ففيها من الدلالة على العظم ما ليس في اسم الطور»[٢] .

ولذلك استعمَلَ (نَتَقْنَا) مع (الجبل) ولم يستعملْ (رَفَعْنَا) ، لما في النَّتْق من التَّهديد الشّديد والتَّخويف ، «فإن النَّتْقَ أشدُّ وأقوى من الرَّفْع ، ذلك أن معنى النَّتْق : هو الجَذْبُ والزَّعْزَعَةُ والاقتلاعُ ، ومعناه أيضاً : هو أن يَقْلَعَ الشيءَ فيرفَعَهُ من مكانهِ لِيَرْمِيَ به ، هذا هو الأصل[٣] في حين أن الرفع ضدُّ الوضعِ .

---

(١) لسان العرب (جبل) ١٣/ ١٠٢ .

(٢) انظر كتابنا : «الجملة العربية تأليفها وأقسامها» ، بحث التقديم والتأخير ص ٤١ .

(٣) لسان العرب (نتق) .

فأنت ترى أن في نَـتْـق الجبل من الغرابة والقوة والإخافة والتهديد ما ليس في رَفْع الطور. فأنْ يُـزَعْـزَعَ الجبلُ ويُقْلَعَ من مكانه ويُرفَعَ لِيُرْمَى به كأن هناك قاذِفاً يقذفُ به عليهم أمرٌ مرعِبٌ ومخيفٌ وفيه من القوة والشِّدَّة ما ليس في رفعه... ألا ترى لو أن شخصاً رفعَ حجارةً من الأرض وتَهَيَّأ لضرب شخص ما، ألم يكنْ ذلك أكثرَ تهديداً وإخافةً من مجرَّدِ رفعِ الحجارة من الأرض؟»[١].

فاستعمل (الجبل) بدل (الطور)، و(نتقنا) بدل (رفعنا) لأن المقامَ يقتضي ذلك، فإنه أفاضَ في ذكر صفات بني إسرائيلَ الذَّميمة ومعاصِيهم في الأعراف ما لم يُفِضه في سورتي البقرة والنساء، فاقتضى أن يكونَ كلُّ تعبير في مكانه.

ومن ذلك قوله تعالى في زكريا ـ عليه السلام ـ في سورة آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [٤١].

وقوله في سورة مريم: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [١٠].

فقال في آل عمران: (ثلاثة أيام)، وقال في مريم: (ثلاث ليال). واليوم هو ما يقابل الليل، فقال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [٧] [الحاقة]. «ومقدارُه من طلوع الشَّمس إلى غروبها... وقد يُـرَادُ باليوم الوقتُ مطلقاً، ومنه الحديث: «تلك أيام الهَرْج» أي: وقته»[٢].

ودلَّ من ذكر اللَّيَالي في مريم والأيام في آل عمران أنَّ زكريا

---

(١) انظر كتابنا: «الجملة العربية تأليفها وأقسامها» بحث التقديم والتأخير ص ٣٩ ـ ٤١.

(٢) لسان العرب (يوم) ١٦/ ١٣٦ ـ ١٣٨، تاج العروس (يوم) ٦/ ١١٥.

ـ عليه السلام ـ لا يتمكَّنُ من أن يُكَلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيامٍ ولياليهنَّ[١] من دون عِلَّةٍ أو مرض ، في حين أنه يستطيعُ أن يذكرَ اللهَ ويُسَبِّحَهُ في نفسِه. فذكر الليالي في آية مريم وذكر الأيام في آل عمران.

وقد تقول: وما سببُ هذا التخصيص؟

والجواب: أن ذلك يَتَّضِحُ من سياق الآيات في كلٍّ من الموضعَيْنِ:

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

وقال في سورة مريم:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾.

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٧٥.

ولو نظرنا في هذه الآيات لوجدنا أن المقابلةَ لم تختصَّ بهذا الموطِن ، وإنما هي ظاهرةٌ في مواطنَ أخرى من النَّصَّيْنِ ، وكأنهما لوحتانِ فنيتانِ متقابلتانِ ، وإليك طَرَفاً من هذا التقابل :

١ ـ قال تعالى في آل عمران : (ثلاثة أيام) .

وقال في مريم : (ثلاث ليال) .

٢ ـ قدَّم مانع الذرية من جهة نفسه في آل عمران ، وهو الكبر ، على المانع من جهة زوجه ، وهو العُقْر فقال : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ . في حين قدّم المانعَ من جهةِ زوجِه في مريم فقال : ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ .

٣ ـ ذكر في آل عمران أن الكِبَرَ أدركه وبلَغَه فقال : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ فالكِبَرُ فاعلٌ وضميرُ المتكلم مفعولٌ به .

في حين ذكر في مريم أنه هو الذي بلغ الكبر ، فهو فاعل فقال : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ .

ومعنى ﴿ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ : أَثَّرَ فِيَّ الكبر فأضعفني ، وأسند البلوغَ إلى الكِبَرِ تَوَسُّعاً في الكلام ، كأنَّ الكِبَرَ طالبٌ له[1] يجري خَلْفَهُ حتى أدركه وبلغه .

٤ ـ ذكر في آل عمران أن امرأتَهُ عاقِرٌ ، وذكر في مريم أن امرأتَهُ كانت عاقراً بزيادة لفظ (كان) .

٥ ـ قدّم العَشِيَّ على الإبكارِ في آل عمران : ﴿ وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَارِ﴾ ، وقدَّم البُكْرَةَ على العَشِيِّ في مريم فقال : ﴿ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ .

---

(١) انظر : الكشاف ١/ ٣٢٢، البحر المحيط ٢/ ٤٥٠، روح المعاني ٣/ ١٤٩ .

٦ ـ عَرَّفَهما بأل في آل عمران ﴿ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ ، ونكَّرَهما في مريم فقال : ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ .

٧ ـ طلب في آل عمران من زكريا الذكر والتسبيح فقال : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ .

وفي مريم طلب زكريا من قومه أن يُسَبِّحوا ، ولم يذكر أنه طُلِبَ منه ذاك .

وهناك مقابلاتٌ أخرى .

فكأن المشهدين متقابلانِ تَقَابُلَ اللَّيل والنَّهارِ .

ثم إن اختيارَ اللَّيل في مريم يقتضيه سياقُ القصَّةِ وجَوُّها ، وكذلك اختيار اليوم في آل عمران . فقوله تعالى في مريم : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ حَسَّنَ ذِكْر الليل ، فإن خفاء النداء يشبه الخفاء في الليل ، فإن الليل يخفي ما فيه ومَن فيه لما فيه من ظلمةٍ ، بخلافِ النهار ، فإنه يفيد الظهور والإظهار .

ومما حسَّنَ ذلك أيضاً ذكرُ شيخوخَتِهِ وضعْفِهِ ، وهما أشبَهُ شيءٍ باللَّيلِ وما فيه من سُبَات وسُكونٍ وقِلَّةِ حركةٍ ، وإذا كان لنا أن نقابل بين حال الإنسان والزمان ، فإن الشباب والعافية أشبه شيء بالنهار وما فيه من حركة ، وإن الشيخوخة والضعف أشبه شيء بالليل وما فيه من سكون .

فذكر شيخوخته ووَهْنَ عظمِهِ مع الليل فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . . . ﴿٤﴾ . . . وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ أي : مبلغ القحول والضعف . ومعنى (العِتِيّ) : المبالغةُ في الكِبَرِ ويبسِ العُود[1] . ولم يذكر مع الأيام إلا قوله : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ ﴾ . فما ذكره في مريم أنسبُ مع ذكر الليل .

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٧٥ .

ثم إنه أشار في مريم إلى طلبِهِ وَرِيثاً يَرِثُهُ بعد موته ويَرِثُ من آل يعقوب فقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾ أي: بعد موتي. والموت ليل طويلٌ وسباتٌ ممتدٌّ، وفي الأثر: «النوم أخو الموت» وفي التنزيل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام] وهذا أقربُ إلى الليل وذكرِهِ وألصقُ به من ذكرِ النهار. ولم يذكرْ مثلَ ذلك في آل عمران حيث ذَكَرَ الأيام.

وهناك أمرٌ يتجلَّى من هذين النَّصَّيْنِ وهو:

أن البشارةَ بيحيى في آل عمران أكملُ وأعظمُ مما في مريم، ذلك أنه قال: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾. فوصفه بقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: مُصَدِّقاً بعيسى. وسيداً، و﴿وَحَصُورًا﴾ وهو الحاصرُ نفسَهُ عن الشَّهَوات وعن المعاصي[1]. ونبياً من الصَّالحين أي: «ناشئاً من الصَّالحينَ، لأنه كان من أصلاب الأنبياء أو كائناً من جملة الصَّالِحينَ كقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾»[2].

في حين لم يقلْ في سورة مريم إلا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾.

ولعِظَمِ البشارة وكمالها اقتضى ذلك عِظَمَ الشُّكْر وكماله:

١ ـ فقال في آية آل عمران: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾، وقال في مريم: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ واليومُ أبينُ من الليل في ظهورِ هذه الآية، ذلك أن الليلَ يمضي كثيرٌ منه في النوم،

---

(١) انظر البحر المحيط ٢/ ٤٤٨، وانظر: تفسير البيضاوي ٧٣.

(٢) الكشاف ١/ ٣٢٢.

فزكريا ـ عليه السلام ـ لا بُدَّ أن ينامَ فيه والناسُ أيضاً ينامونَ ، فالتسبيحُ والعبادةُ في اللَّيل أقلُّ مما في النَّهار. ومخاطبةُ الناس ومخالَطَتُهم فيه أقل. فالآيةُ في اليوم أطولُ وأظهرُ.

٢ ـ أنه في آل عمران طُلب من زكريا ـ عليه السلام ـ أن يذكرَ ربَّهُ ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾، في حين طلب زكريا من قومه في سورة مريم أن يُسَبِّحوا ، ولم يذكر أنه طُلبَ منه التسبيح. وتسبيحه هو أدل على شكره.

٣ ـ أنه طُلِبَ منه أن يذكر ربَّه كثيراً في آل عمران ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ وهذا شكرٌ مناسِبٌ لِعِظَم البشارة.

٤ ـ أنه طُلِبَ منه الجمع بين الذكر الكثير والتسبيح ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ﴾ وهذا مناسب لعظم البشارة.

٥ ـ لما قدّم في آل عمران المانع من جهة نفسه ، ناسب أمره هو بالذكر والتسبيح وأن يقوم به هو. ولما قدّم في مريم المانع من جهة غيره (وهو الزوج) ناسب ذكر غيره بالتسبيح وهم قومه.

وهناك سبب دعا إلى تقديم المانع من جهة نفسه في آل عمران وتقديم المانع من جهة زوجه في مريم ، ذلك أنه قال في آل عمران: ﴿ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾، وقال في مريم: ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾. والعُقْر قد يحصلُ عن الكِبَر والهَرَم أو عن عارض ، وقد يكونُ ذلك طبيعةً.

جاء في «فتح القدير» في قوله: ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾: «العاقر: هي التي لا تَلِدُ لِكِبَرِ سِنِّها ، والتي لا تَلِدُ أيضاً لغير كِبَرٍ ، وهي المرادةُ هنا»[1].

---

(١) فتح القدير ٣/ ٣١١.

وفي «المصباح المنير»: «عقرَتِ المرأةُ... انقطعَ حَمْلُها، فهي عاقرٌ»[١].

وفي «لسان العرب»: «بيضةُ العُقْر... قيل: هي آخر بيضةٍ تبيضُها [أي: الدجاجة] إذا هرمتْ...

ويقال: كان ذلك بيضةَ العُقْر، معناه: كان ذلك مرّةً واحدةً لا ثانية لها»[٢].

فقوله: ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ﴾ يفيدُ أن هذا شأنُها حالَ الإخبار عنها، وربما لم تكنْ كذلك قبلاً.

وأما قوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ فيفيدُ أن هذا وصفُها منذ شبابها، فالعُقْرُ وصفٌ مستحكمٌ فيها، وليس عارضاً، فتكون الولادة في مثل هذا أبعدَ وأعجبَ.

جاء في «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير: «وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عُمُرِها»[٣].

فقدم ما هو أبعدُ وأدعى إلى العَجَب في مريم، بخلاف ما في آل عمران.

٦ ـ لما ذكر الليل في آية مريم (ثلاثَ ليالٍ) ناسب ذلك تقديمَ البُكْرَةِ على العَشِيِّ، لأن البكرة أولُ النهار، وهي من الفجر إلى طُلوع الشمس[٤] أو إلى الضُّحى[٥]. والعَشِيُّ من بعدِ الزَّوَال إلى غروب الشمس، أي: من

---

(١) المصباح المنير (عقر) ٤٢١.

(٢) لسان العرب (عقر) ٦/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣، وانظر: (أساس البلاغة) ـ عقر ٦٤٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١١٢، وانظر: فتح القدير ٣/ ٣١١.

(٤) انظر: لسان العرب (غدا) ١٥/ ٣٥٢.

(٥) انظر: روح المعاني ٣/ ١٥٢، تفسير البيضاوي ٧٣.

وقت صلاة الظهر إلى المغرب[١]. ولا شك أنه بعد اللَّيل تأتي البُكْرَةُ، ثم العَشِيُّ، فأراد أن لا يذهبَ من الوقت شيءٌ في غير الطاعة والتسبيح، فقال: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. ولو قال: (عَشِياً وبُكْرَةً) لكانت البُكْرَةُ الأولى مضتْ من دون تسبيح. فكان تقديمُ البُكْرَةِ ههنا أتمَّ وأولى.

ولما ذكر اليوم في آل عمران ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ كان تقديمُ العَشِيِّ أولى، لأن بُكْرَةَ ذلك اليوم قد مضتْ وبقيَ العَشِيُّ، فلا بد من ابتداره للتسبيح والذكر فيه. فلو قَدم البُكْرَةَ أيضاً لذهب عَشِيُّ اليوم الأول من دون تسبيح وذكر، فيكونُ قد ذهبتِ البُكْرَةُ والعَشِيُّ. فتقديمُ ما قدَّم هو الأولى والأدَلُّ على الشكر.

٧ ـ إن البشارةَ في آل عمران حصلتْ وهو قائمٌ يُصَلّي في المحرابِ، في حين لم يذكرْ ذلك في مريم، بل عَلِمْنا من فحوى الكلام أن البشارةَ كانت وهو في المحرابِ، بدليل قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ ولا يقتضي كونُه في المحرابِ أنه كان يُصَلِّي فيه. فذكر في آل عمران الحالةَ الأكملَ التي كان عليها سيدنا زكريا، وهو المناسبُ لِعظمِ البشارةِ وكمالِها.

٨ ـ أن البُكْرَةَ والعَشِيَّ نَكِرَتَانِ في مريم ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ مُعَرَّفتان في آل عمران ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ ويذكر المفسرون أن (أل) في ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ تفيد العموم.

جاء في «البحر المحيط»: «والظاهر في ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أن الألف واللام فيهما للعموم، ولا يُرَادُ عَشِيُّ تلك الثلاثة الأيَّام، ولا وقتُ الإبكارِ فيها»[٢].

---

(١) لسان العرب (عشا) ١٩/ ٢٨٩، روح المعاني ٣/ ١٥٢، تفسير البيضاوي ٧٣.

(٢) البحر المحيط ٢/ ٤٥٣، وانظر: روح المعاني ٣/ ١٥٢.

ونظير ذلك من الظروف كثير مما دخلت عليه (أل) في الاستعمال القرآني ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [غافر] ، وقوله: ﴿ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] ، وقوله: ﴿ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فصلت] .

ونحوُها كثيرٌ مما يدُلُّ على العموم والاستمرار.

وذلك يدل على تطاول مدة الذكر والتسبيح ، وهو مناسب لعظم البشارة ، والله أعلم.

ومن اختلاف المفردة في الموطنين المتشابهين قوله تعالى: ﴿ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة] .

وقوله: ﴿ وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحج].

فقال في سورة البقرة: ﴿ وَٱلۡعَٰكِفِينَ ﴾ وقال في سورة الحج: ﴿ وَٱلۡقَآئِمِينَ ﴾ . والعاكفون: هم أهلُ البَلَد الحرام المُقِيمونَ ، وقيل: هم المُجَاوِرُونَ له من الغرباءِ ، وهم الذين عَكَفُوا عندَه ، أي: أقاموا لا يبرحون ، وقيل: هم المعتكفونَ فيه[1].

والقائمونَ: هم المُصَلُّونَ كما يقولُ المُفَسِّرُونَ ، فعلى هذا يكونُ القائمونَ هم الرُّكَّع السُّجود، إلا أنه ذكر أهمَّ أركان الصَّلاة وهي القيامُ والركوعُ والسجودُ.

---

(١) انظر: البحر المحيط ١/ ٣٨٢، الكشاف ١/ ٢٣٧، روح المعاني ١/ ٣٨١، تفسير ابن كثير ١/ ١٧٠، فتح القدير ١/ ١٢١.

جاء في «البحر المحيط»: «والقائمون هم المُصَلُّونَ ، ذكر من أركانِها أعظمَها ، وهو القيامُ والرُّكوعُ والسُّجودُ»(١).

وجاء في «روح المعاني»: «ولعلَّ التعبيرَ عن الصَّلاة بأركانِها من القيام والرُّكوع والسُّجود للدلالة على أن كلَّ واحدٍ منها مستقلٌّ باقتضاء التطهير أو التَّبْوِئَـةِ على ما قيل»(٢).

والذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أنَّ القيامَ لا يختصُّ بالقيام في الصلاة ، وإنما هو يشملُ القيامَ بأمر الدِّين عموماً والاستمساكَ به والمحافظة عليه.

فالقائمونَ هم المستمسِكُونَ بدين الله الثابتونَ عليه كما قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران].

جاء في «لسان العرب»: «معنى القيام العزم . . . ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴿١٩﴾﴾ [الجن]. أي: لما عزم ، وقوله: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿١٤﴾﴾ [الكهف]. أي: عزموا فقالوا. . . والقائم بالدين المستمسك به الثابت عليه . . . وعليه قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران]. أي: مواظِبَةٌ على الدِّينِ ثابتةٌ»(٣).

«وكذلك فلانٌ قائمٌ بكذا ، إذا كان حافظاً له مستمسكاً به»(٤).

أما سببُ ذكر (العاكفين) في سورة البقرة و(القائمين) في سورة الحج فذلك أمرٌ يقتضيه السِّياقُ.

إن معنى (العكوف) الإقامة ولزوم المكان.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٦٤، وانظر: فتح القدير ٣/ ٤٣٤.
(٢) روح المعاني ١٧/ ١٤٣.
(٣) لسان العرب (قوم) ١٥/ ٣٩٨ ـ ٤٠٣.
(٤) لسان العرب (قوم) ١٥/ ٤٠٣.

جاء في «لسان العرب»: «عَكَفَ على الشيء: أقبلَ عليه مواظباً لا يصرفُ وجهَهُ عنه. وقيل: أقام، ومنه قوله تعالى: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف]. أي: يُقِيمُونَ. ومنه قوله تعالى: ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه]. أي: مُقِيماً . . . ويعكُفُ عَكْفاً وعُكُوفاً: لَزِمَ المكانَ. والعُكوفُ: الإقامةُ في المسجد، قال الله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة]. قال المفسِّرُونَ وغيرُهم من أهل اللغة: عاكفونَ: مُقِيمُونَ في المساجد لا يخرجونَ منها إلا لحاجة الإنسان، يُصَلّي فيه ويقرأُ القرآنَ. ويقالُ لمن لازَمَ المسجدَ وأقام على العبادةِ فيه: عاكف ومعتكف»[1].

وقد ذكرنا أن العاكفين هم أهل البلد الحرام المقيمون، وقيل: هم المجاورون له من الغرباء. وقد جاءت الآية في سياق ذكر أهل البلد الحرام وسكانه. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة].

وذكر ذرية إبراهيم وإسماعيل فقال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة].

وسكانُ البلد الحرام هم من ذُرِّيَّةِ إبراهيم وإسماعيل. ومن هؤلاء السكانِ المقيمينِ في البلد الحرام بُعث النبيُّ الأمينُ ﷺ الذي دعا به إبراهيمُ وإسماعيلُ، فناسب ذلك ذكرَ العاكِفِينَ، وهم أهلُ البلدِ الحرامِ المقيمونَ أو المجاوِرُونَ وعمومُ من لزم المسجدَ الحرامَ.

---

(١) لسان العرب (عكف) ١١/ ١٦١.

أما في آية الحج فقد ذكر (القائمين) ولم يذكرِ العاكفينَ ، ذلك أنه قال قبل هذه الآية: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج] . فجعل العاكِفَ فيه وغيرَهُ سواء ، فليس من المناسب أن يُفْرِدَ العاكِفِينَ ، فقال: (والقائمين). والقائِمُونَ قد يكونونَ من العاكِفِينَ وغيرِهم.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه ذكر بعدها فريضة الحج والحجاج الذين يأتونه من كل فج عميق ، ولم يذكر أهل البلد الحرام وسكانه ، فقال: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج] .

ومن هؤلاء المذكورينَ من سيعودُ إلى أهليهم بعد قضاءِ فريضة الحجِّ ، فلا يناسبُ ذلك ذكرَ العُكُوفِ والإقامةِ ، وإنما يناسبُهُ القيامُ. والقيامُ من معانيه القيامُ بأمر الدِّين والاستمساكُ به كما ذكرنا ، ومن ذلك القيامُ بالصلاةِ وبمناسك الحجِّ وغيرِها من الطَّاعات. فناسبَ ذلك ذكرَ العاكِفِينَ في البقرة والقائمين في سورة الحج واللهُ أعلمُ.

* * *

المراجع

ـ أساس البلاغة لجار الله الزمخشري ، مطابع الشعب ١٩٦٠م.

ـ أنوار التنزيل ، البيضاوي ، المطبعة العثمانية ١٣٠٥هـ.

ـ البحر المحيط لأبي حيان ط١ ، سنة ١٣٢٨هـ ، مطبعة السعادة بمصر.

ـ البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، ط١ ، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م ، دار إحياء الكتب العربية.

ـ البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان ، محمد بن حمزة الكرماني، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية أصول الدين في جامعة محمد بن سعود الإسلامية، حققها ناصر بن سليمان العمر، مطبوعة بالآلة الكاتبة.

ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي ، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار ، القاهرة ١٣٨٣هـ.

ـ تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، تصوير ، الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر ، سنة ١٣٠٦هـ.

ـ التعبير القرآني ، د. فاضل صالح السامرائي ، ط١ ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ١٩٩٨م.

ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، طبع بدار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

ـ الجملة العربية تأليفها وأقسامها ، د. فاضل صالح السامرائي ، طبع بدار الفكر ، عمان ، الأردن ٢٠٠٢م.

ـ الخصائص لابن جني ، تحقيق محمد علي النجار ، مطبعة دار الكتب المصرية.

ـ درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣م.

ـ روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الآلوسي ، إدارة الطباعة المنيرية ، دار إحياء التراث العربي.

ـ شرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبد الله الأزهري ، دار إحياء الكتب العربية.

ـ شرح الشافية لرضي الدين الإستراباذي ، تحقيق محمد محيي الدين وجماعة ، مطبعة حجازي بالقاهرة.

ـ شرح الكافية لرضي الدين الإستراباذي ، مطبعة (الشركة الصحافية العثمانية) ، ١٣١٠هـ.

ـ شرح المفصل لابن يعيش ، طبع ونشر إدارة الطباعة المنيرية.

ـ صحيح مسلم ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، مصر.

ـ فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني ، ط١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، سنة: ١٣٤٩هـ.

ـ القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزأبادي ، ط٥ ، شركة فن الطباعة ، مصر.

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشري ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

ـ لسان العرب لابن منظور ، مصور عن طبعة بولاق.
ـ لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، د. فاضل صالح السامرائي ، ط١ ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ١٩٩٨م.
ـ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني ، تحقيق علي النجدي ناصف والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، القاهرة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٩٦م.
ـ المصباح المنير للفيومي ، المكتبة العلمية ، بيروت.
ـ معاني الأبنية في العربية ، د. فاضل صالح السامرائي ، ط١ ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن.
ـ معاني القرآن لأبي زكرياء يحيى بن زياد الفراء ، مطبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.
ـ معاني النحو ، د. فاضل صالح السامرائي ، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر ـ الموصل ـ الطبعة الأولى.
ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد البجاوي ، دار الثقافة العربية للطباعة.
ـ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، طهران.
ـ ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي ، تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
ـ النشر في القراءات العشر لابن الجزري ، مطبعة مصطفى محمد بمصر.
ـ همع الهوامع للسيوطي ، ط١ ، سنة ١٣٢٧هـ ، مطبعة السعادة بمصر.

* * *

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥

الذكر والحذف ١١

اسطاعوا .. و ... استطاعوا ١٢

تَنَزَّلُ .. و ... تتنزل ١٢

توفاهم .. و .. تتوفاهم ١٣

تبدَّل و .. تتبدلوا ١٤

لا تَفَرَّقُوا .. و .. لا تتفرقوا ١٥

تَولَّوا .. و .. لا تتولوا ١٧

تَصدَّقُوا .. و .. تتصدقوا ١٩

تستطع .. و .. تسطع ١٩

أفلا تذكّرون .. و .. أفلا تتذكرون ٢٠

ما كنا نبغ .. و .. ما نبغي ٢٤

واخشوني و .. واخشون ٢٥

لولا أَخَّرتني و .. لئن أخرتن ٢٨

اتبعنِ .. و .. اتبعني ٢٩

تسئلن .. و .. تسألني ٣٠

عباد .. و .. عبادي ٣٢

الرسول . . و . . الرسولا ٣٩
السبيل . . و . . السبيلا ٣٩
الظنون . . و . . الظنونا ٣٩
الإبدال ٤١
يَضَّرَّعون . . و . . يتضرعون ٤٤
أرسلنا إلى أمم . . و . . أرسلنا في قرية ٤٥
المُصَدِّقين . . و . . المتصدقين ٤٥
أفلا يتدبرون . . و . . أفلم يَدَّبروا ٤٧
يَزَّكى . . و . . يتزكى ٥٠
المُطَّهرين . . و . . المتطهرين ٥١
يَذَّكَّر . . و . . يتذكّر ٥٢
يَذَّكرون . . و . . يتذكرون ٥٤
اطَّيرنا . . و . . تَطيَّرنا ٥٦
يَخصِّمون . . و . . يختصمون ٥٦
بكة . . و . . مكة ٥٧
اللائي . . و . . اللاتي ٥٨
بسطة . . و . . بصطة ٥٩
يبسط . . و . . يبصط ٦٠
عُتُوّ . . و . . عِتيّ ٦٢
فَعَّل وأفعل بمعنى ٦٥
كَرَّم . . و . . أكرم ٦٦
أوصى . . و . . وصّى ٦٦

نزّل . . و . . أنزل ٦٧
نَجَّى . . و . . أنجى ٧٤
نجّاكم . . و . . أنجاكم ٧٥
نجّاهم . . و . . أنجاهم ٧٥
نجّينا . . و . . أنجينا ٧٦
نجّيناه . . و . . أنجيناه ٧٧
نجّيناكم . . و . . أنجيناكم ٧٩
المبني للمجهول ٨١
يُنْزَفُون . . و . . يُنْزِفون ٨١
فاكهة . . و . . فواكه ٨٣
يطاف . . و . . يطوف ٨٥
طُبع . . و . . طَبع ٨٨
الوصف ٩١
مشتبهاً . . و . . متشابهاً ٩١
أعجاز نخل خاوية . . و . . أعجاز نخل منقعر ٩٧
الإفراد والتثنية والجمع ١٠١
إني رسول . . إنا رسولا . . إنا رسولُ ١٠١
طفل . . و . . أطفال ١٠٣
بني . . و . . أبناء ١٠٧
النخل . . و . . النخيل ١٠٩
الحركة غير الإعرابية ١١٧
ومن أوفى بما عاهد عليهُ الله و . . ما أنسانيهُ إلا الشيطان ١١٧

تعاور المفردات ١٢٥
فانفجرت.. و.. فانبجست ١٢٥
ثلاث ليال.. و.. ثلاثة أيام ١٢٦
الطور.. و.. الجبل ١٢٩
العاكفين.. و.. القائمين ١٣٩
المراجع ١٤٣
فهرس الموضوعات ١٤٧

* * *